أغدف الليل وانتشر في جوه الساكن فوح أزهار البرتقال. وجلست حنان في فجوة نافذة، فلقد كان الحائط السميك يجعل من فجوات نوافذ المنزل محاريب يفرش ـ ونها بالوسائد ويجلسون فيها. وقد نبا مضجعها وأقض عليها الهم، وعلقت عيناها بهلال يبرق بين أوراق الشجر، وتنهدت للأحلام التي تنفلت من يـ ديها، وتختفـ ي كمـ ا يختفي الهلال خلف الغيوم. وسألها رفيق وهو يتأهب للنوم:

- ألن تنامي؟..

- هل أنت نعس؟..

- إنني تعب، ولكن هذه الأخبار قد أطارت النوم من عيني..

- إن الكآبة تمزقني.. ماذا أفعل يا رفيق؟.. هل يجب أن أقطع علاقتي بماجد؟.. لقد رأيت في عيني غالب شيئا أخافني.. تصميم من يخطط لأمر.. وزادت مخاوفي إثر الخبر الذي ذكرت..

- قد لا يكون لغالب دخل في الأمر.. إن الصفات التي ذكرت ليست ندرة بين الرجال..

- غالب يطيع الأوامر.. وهو مع الثوار ليقوم بهذه المهمات.. إن نفسي تنفر من هذه الأعمال مهما كانت غايتها.. أكره مهن القتل.. وأتّهم المجتمعات الإنسانية كلّها التي تدفع بالإنسان إلى الجريمة.. لست هنا لأصدر حكما في شأن أبي ماجد، ولكنني أكره أن ينصب غالب من نفسه حكما على الناس.

كيف يمتلك حق عقوبة الموت؟.. هذا من حق المجتمع وليس من حق فرد أو أفراد، ولا يجب أن يكون أبدا دون محاكمة.

- وأنا لا أحبذ القتل مهما كانت دوافعه السياسية والاجتماعية.. ولكن للثورة قوانين لا بد من احترامها. إن أناسا كثيرين يقترفون خيانات صغيرة، خطيرة في مجموعها.. لا يفكّرون إلا بالربح، وبحقّهم في الربح مهما كان مصدره.. هل تنفّذ المقاطعة؟.. إن أصحاب المحل الذي أعمل فيه هم أول من يخرق المقاطعة، فلا يجن الليل حتى تُفتح نافذة خلفية في المحل لنقل البضائع من شاحنة يهودية. من يراقب، ومن ينفّذ قرار المقاطعة كما ينبغي؟.. السعر هو الذي يتحكّم في السوق وفي تصرف التجار، ولا يبالي التاجر من أين يحصل على بضاعته. وصلتنا نسخة عن تقرير " الجامعة العربية " بشأن المقاطعة.. الشركات الأوروبية التي يجب أن لا نتعامل معها بسبب روابطها الصهيونية لا تُعدّ ولا تُحصى.. والتاجر لا يفكّر إلا بالربح.. يخون كل طموح الأمة من أجل الربح.. منذ اللحظة التي فقد فيها التاجر العربي أن يكون سيد سلعته فقد رابطته بأمته، وأصبح شاء أم أبى خائنا لأهدافها وطموحها وتقدمها..

- أبو ماجد ليس تاجرا..

- إن لم يكن تاجرا فهو حتما شريك تاجر أو يقوم بدور تاجر..

- إنّه يبدو لي إنسانا نزيها..

- نحن لا نعرف عن تصرفاته السرية..

- حتى لو لم يكن فماجد لا شأن له به.. ولن يضطرني غالب لأفصل خطوبتنا.. إنه مخلص لي يحبني وأنا أحبه..

- أرى أن ننتظر ولا نستعجل الأمور.

- عندما كان قلبي خليا جنّوا لهفة كي يشغلوه به.. لعل الأمر كان يختلف لو لم أعرفه وتتوثّق علاقتي به.. ولكن كما ترى لقد كان الرجل الوحيد في حياتي ووجدته طيبا حنونا يريد سعادتي فكيف أجرحه؟ كيف أُهينه باتهام والده، وكيف أتعسه بفصم خطوبتنا؟.. إن غالب لا يدرك ما يقول.. إن ما بيننا ليس عاطفة عابرة يمكن لي أن أخنقها دون أن تترك أثرا خطيرا في حياتينا.. أنت تعرفني يا رفيق، لست أخفي عنك شيئا، طلبت إليه أن يبتعد، ولكن إذا استمر هذا الأمر فسيقتلني..

كان رفيق كعادته يصغي، وكعادته لا يتكلّم إلا عندما يختمر الرأي لديه:

- اتركي الأمر للزمن، واشغلي نفسك بعمل آخر، وستجدين نفسك في الأسبوع المقبل أكثر هدوءا، وأوفر شجاعة، ولكلّ حادث حديث..

حدث ما توقّعه رفيق.. مر أسبوعان أصبحت حنان بعدها أهدأ بالا وأوفر شجاعة.. بكت وبثّت الأوراق شجنها فخفّت وطأته ووجدت في نفسها النشاط لتشارك إخوتها في اللعب.

كانت تتسابق وخالدة لعبة كرة الطاولة وهي واقفة إلى منضدة قديمة تحت شجرة نارينج وارفة، حيث كانت العائلة تحمل في كثير من الأيام طعامها وتجلس للأكل في الفصول الربيعية والخريفية. وتستقبل الزوار، ويُعد الصغار دروسهم في هذا الركن بالذات حيث تفرد الشجرة أغصانها كمظلّة واقية.

نالت هدفا إضافيا فسجلته بالطباشير وهي تضحك والمضرب في يدها تلّوح به لخالدة التي وثبت لتلتقط الكرة التي اختفت بين الحشيش النامي وهي تحتج:

- تسعة عشر.

- بل عشرون.

وإذا بالمضرب يطير من يدها، فالتفتت لترى من جذبه وندت عنها صيحة دهشة وسرور:

- ماجد!.. ما أتى بك؟..

ونظر إلى باقة الزنابق في غلالتها الشفّافة، وقال:

- همست إلي الزهور بأنّها تحن لرؤياك، وهي طبعا لا تعرف أن تأتي وحدها.

وضحكت حنان، وقبلت الباقة وهي تعانقها فهز رأسه بعتاب:

- أنت تضحكين وأنا أبكي.

وأمسكت بيده وابتسمت وهي تكشف أسراره:

- وأنت ألم تمتّع نفسك برحلة بحرية؟..

- أنا!.. استأجرت مركب صياد وأوغلت فيه.

- عانقت الأمواج ولوحتك الشمس؟..

- قليلا! شاهدتهم يتسللون فعدت مسرعا بالمركب.

- خالي الوفاض لم تصد سمكة واحدة؟

- أحمد الله أنني لم أُصد أنا نفسي.

- رفيق كان هناك وشاهدك وأخبرني بما فعلت الجمعة الماضية..

وضحك:

- رآني حين عدت إلى شاطئ " يافا " ما أردت أن أعود بالخيبة. أحببت أن أصطادها حية، فلست أحب طريقة الصيادين بفرقعة الديناميت. وهو إلى ذلك قد ندر لأنهم يستخدمونه كسلاح.

وكانت خالدة تصخب وهي تفتّش عن الكرة الصغيرة التي اختفت:

- أين رميت بها؟.. تعالي من فضلك وابحثي عنها.

ورفعت رأسها، فما شاهدت ماجد حتى انطلقت أساريرها:

- أهلا، أهلا .

وعادت إلى البحث..

وتسلّقت حنان الطاولة، وجذبت يده ولكنّه كان يفضل ركنهما تحت شجرة الليمون عند الساقية، فحمل كرسيا وحملت حنان الآخر ولكنّه جذبه منها، وقال:

- ائتني بماء وليكن باردا.. إنني ظمآن.

وعادت تحمل إبريقا زجاجيا وطاولة صغيرة زمردية اللون مطوية وأخذ ماجد يشرب رويا، فقالت له باسمة:

- لا تسرف بشرب الماء، سآتيك بشراب الليمون.

ولكنّه راح يعب ويعب حتى اشتف ما فيه، وقال بنغمة معنّى مكدود وهو يتحدى عينيها:

- ها قد عدت!..

وارتعشت حنان ولكنّها رمقته بعتاب:

- لمَ لم تبق على وعدك؟..

وابتسمت لتجعل العتاب هينا رقيقا، فأجاب مغضبا:

- إنني لم أعد.

- كيف؟..

- قلت بأنني سأحمل نفسي على البعاد فآدني الحمل.. ماذا كنت تنتظرين؟..

- لا أعرف..

- ثنيتُ النفس عن رؤياك فلم تنثن.. حسبت في اللهو منجاة لي فخدعني الأمر..

وكل منظر رائع وكل روح نسيم كان يعصر قلبي بدل أن يبعث فيه البهجة..

وخيل لي أنك مثلي تتألمين وحفزني الشوق نحو منزلك فإذا بك لا عبء تحملين ولا زفرة تصعدين، وسيان عندك حضوري وغيابي..

كانت عيناه مضرجتين وهو يحدق في عينيها.. مفعمتين بالرغبة، وأحست برجفة تسري في أوصالها.. كانت نظرته تثير كوامن أشواقها، تخترق أغوارها فتشعر أنها أنثى تريد أن تذوب في رجلها.. وتصاعدت نشوتها حتى لتحس بالدموع تطفر من عينيها:

- ليس صحيحا ما تقول..

- آه!.. كنت أروى لو رأيتك أشقّك الحزن وفاضت عيناك بالدموع!. نعم!.. كنت أروى لو أعرف أن الحب يحرقك كما يحرقني، ولكن ما تبرق لي بارقة في نفسي أنني نلت قلبك حتى أراني على عتبته.

- لا تتجنّى يا ماجد، وتخزني باللوم، ما أدري ما أقول لك.. لو رأيتني ما بالي خلوا ولا جفني يغيض لأعنفت في تأنيبي لفرط الحساسية.. ولو كاتمت لوعتي وما سمحت لها أن تشف، لأغضبك أنني لا عبرة أذري ولا زفرة أصعد.. فلأكبح لساني خير من أن أصرح لك بشيء.

- بل أريد أن تصارحيني بالحقيقة.

- إن كان هذا هو الحب في عرفك، إذلال لعناني وإرهاق لمشاعري.

وكفّت وهي ترشفه بنظرة حردة ثم أشاحت بوجهها وانهمر دمعها ولامست يده يدها فارتعشت، وقال بصدق لهجة:

- لا تحتدي يا حنان، إنه بث اللوعة الذي يجري على لساني ما يُغضبك. أيعجبني أن ألقاك الفينة بعد الفينة وحين يروق لك الأمر؟.. لقد لج بي الهوى ونفذ صبري وأنت لا تبالين.. يبدو لي أن شيئا ما يخيفك.. كأنما تطيلين المدى خوفا من الزواج.. ماذا بك؟..

- ماجد، ليس لك أن تتنصل من التبعة.. إن غاراتك علي ما تنقضي ولا تترك لي سبيلا للانتعاش، وما أرى إلا هذا الهيجان المتواصل سيعجل منيتي.. إنني أخسر من وزني بغير سبب معلوم، وأحير الطبيب في أمري وأكبد عائلتي من النفقات علي ما يعادل مصروف العائلة كلّها.. إنني أشعر أنني أسرقهم وأنني لست ذات نفع، أتألم، نعم أتألّم.. أريدك صديقا، وأنت تأبى إلا أن تقف مني موقف المبارز الخصم لا موقف الصديق الودود..

كان ماجد يحدق في عينيها المخضلتين ويبتسم:

- انتظري يوم أكسر عظامك.. من قال لك أن العاشق صديق ودود؟.. سأنتقم منك انتقاما مريعا لا يخطر لك على بال.

وتنهدت حنان وقد أحست بالقشعريرة تهزها بعنف:

- إنك خطر ومخيف.

وهز رأسه بوجد:

- سأخيفك حتما حين أصهرك بلهيبي.

وشعرت حنان حقا بجذوة اللهب في صدرها وتعانق القلبان للحظات برغبة متوهجة فأشاحت بعينيها ونهضت.. وسار قربها وهو يلتفت إليها ويتأمل وجهها الهادئ الحزين، وقد علته حمرة خفيفة من الانفعال. وسارا متمهلين نحو البيت صامتين متقاربين، وكانت يد ماجد تلامس يدها بفعل الحركة للسير الرتيبة، فتحس بفيض من الغبطة تجتاح جوانحها وتتصاعد منها موجة عارمة جامحة. والتقى فجأة خنصرها بخنصره فتلامسا للحظات وأحست بالدوار. كانت مثارة إلى أقصى درجات الإثارة، وخُيل إليها أنها لا تدري المدى الذي يمكن لهما أن يبلغاه لو حدث واختلى أحدهما بالآخر..

كلاهما كان يشتاق ليضم الآخر بين ذراعيه بكل عنفوان شبابه، بكل الكبت الذي يعانيه، بكل أحلام لياليه ويقظته.. وانتابها الخوف.. لم تشعر يوما بذلك الشعور المفعم بالرغبة الذي يمتلك النفس حتى يزهقها.. كان يمسك بيدها من قبل فلا تحس إلا بفرح بريء أنها تجد إنسانا شغوفا بها.. لقد أيقظ أنوثتها في اللحظة التي تحس بها بما يهدد حبهما، أو ربما يجعله مستحيلا لو حدث وأقدم غالب على فعلته.

ومر هاني ونادر يتراكضان ثم توقّفا لحشّ الكلأ وإطعام الأرانب في ركن الساحة التي تحيط بالبئر، ونادت حنان نادر فأبى أن يتقدم.. كانت الأرانب وحركاتها قد شغفته عن الاهتمام بأي إنسان ولو كان العم ماجد الذي يحبه ويدلله. وتخلّصت حنان من هواجسها وحدثت ماجد عن هربه المتواصل من المدرسة وامتد بهما الحديث عن المدارس الكئيبة التي يذهب اليها الطفل العربي الفلسطيني، والطفرة التي يعانيها في انتقاله من المروج الخضر إلى تجهم قاعة الدرس، مما يسبب له كره المدرسة ودنياها العابسة المقلقة بواجباتها وعقوباتها.. وهذا جرهما إلى الحديث عن الأرض المشاع التي كان الأهالي يطلبون من الحكومة أن تسلمهم إياها ليبنوا مدرسة لأطفالهم وكيف أن الحكومة ردت طلبهم وضمتها إلى أملاك "الكبوتز" الذي يشرف على أرض أبي حاتم..

ولكن ماجد لم يكن يبدو عليه أنه مسرور بأي حديث.. كانت تعليقاته مقتضبة فشعرت حنان بالحرج ووجدت نفسها تقص عليه ما هو مثير للاهتمام.

- لقد جاء " الياهو" هذا الأسبوع مرتين إلى والدي.

- من هو " الياهو" هذا؟..

- إنه الشاب الذي يسكن في هذا المنزل مع أخته "فورتوني" في الأرض المشاع. وعرض عليه شراء بستان البرتقال بثمن غال فرفض، وعندما ألح عليه في المرة الثانية طرده والدي شر طردة.

قال ماجد ساهما:

- إن الطريق الوحيد الذي نخيب فيه أحلام الصهاينة هو أن نمنع تسرب الأراضي إليهم بكل قوانا.. ومع هذا تتسرب بكل أسف أراض معينة، مختارة بعناية إليهم.. لو أوكل الأمر لي لما رحمت السماسرة الذين يتاجرون بمصير شعب، لقطّعتهم إربا وألقيت بهم إلى الكلاب.

وتفرست فيه حنان لحظة.. كيف يكون وقع الأمر على ماجد لو علم أن والده في القائمة السوداء؟.. كانت تدرك أن من المستحيل عليها أن تنبس ببنت شفة في هذا الموضوع الخطير، فماجد يقدس والده ولا تعلق بنفسه أدنى ريبة فيه.. ولم تحدثه قط عن غالب وأخفت عنه ما حدث يوم التفتيش.. كان شيئا متّفقا عليه في العائلة أن يكتم كل ما يتعلق بغالب حتى عن أقرب الناس إليهم.. وتناولت بالحديث الموضوع من زاوية أخرى:

- أتعلم يا ماجد أن شيئا غريبا حدث معي في الأسبوع الماضي؟.. ولكن لندخل ونرى ما صنعت لنا أمي للعشاء.

وغابت بضع دقائق ثم عادت وهي تحمل سدرا وضعته على الطاولة تحت شجرة الليمون، وأشعلت النور الكهربائي الذي كان يتدلّى من فرع الشجرة، وكان بخار العجة الساخنة والعوامات لا يزال يتصاعد، وسكبت له في كوبه عصير البرتقال وسكبت لنفسها قدحا آخر:

- أُصبت بألم في ضرسي أوجعني.. وذهبت إلى طبيب الأسـنان اليهـودي فـي مدخل المدينة ترافقني والدتي. والتي كنت مثلها منتقبة، فأنت أدرى بالأذى الـذي يلحق بكل سافرة. إنه سورة عارمة مخجلة، وجلست في غرفة الانتظـار فـدخل شرطيان بريطانيان وكان بينهما شاب موثق اليدين، كان يمـزح معهمـا باللغـة الإنكليزية وهما يضحكان.. وجلسوا قبالتنا.. وما أن شاهدني السجين في النقاب أنا وأمي حتى اعترته هستيريا من الضحك وجعلنا هدفا لمزاحه.. ولم أفهم ما كـان يقول خلال ضحكه وهو يردد كلمة عرب.. وكنت أتفجر غيظـا لهـذا الموقـف المشين، وودت لو أنصرف ولكن الألم في ضرسي أقعدني. فأقرب طبيب أسـنان يحوجني إلى السير ساعة، أو إلى انتظار الباص مثلها.. جلست هادئة أنظر إليـه من وراء نقابي وأتفرس في وجهه.. إن صورته لا تزال مرتسمة في ذهني بشفتيه الرقيقتين، ووجهه المربع المتقد، وعينيه الـصغيرتين الزرقـاوين الـساحرتين.. وأحسست نحوه بالمقت، وكان قد كفّ عن الضحك وطلب لفافة ففتح له الشرطيان علبتي سجائرهما. وأخذ واحدة بيده الموثقة وهو يضحك وأشعلها لـه الـشرطي الآخر.. كنت أفهم بعض حوارهم وفاتني منه البعض.. قال لهم:" أطلقـوا سـراح يدي حتى أتمكّن من التدخين." فقال له الشرطي :" ستهرب !." فأجاب ضـاحكا:" إنني سأهرب على كل حال." فقال الشرطي الآخر شيئا لم أفهمه، ولكنه ردد كلمة

جريمة.. قال له:" جريمتك كبيرة." فقال ضاحكا:" رفاقي في الهاغانا لن يتركـ وكم تفعلوا."

وددت لو أستمع أكثر ولكن دورنا قد حان للدخول وفيما كـان الطبيـب يعـالج ضرسي سمعنا ضجة في الخارج فتركني الطبيب وفتح الباب وقمت أنا الأخـرى وتبعته حاسرة نقابي.. كان الشرطيان واقفين قرب نافذة مفتوحة وهمـا يـصوبان بندقيتهما إلى الخارج، ويهتفان:

- الياهو قف، إننا سنطلق النار.

ولكن كان يلتفت وهو يركض، ويرفع يده إلى رأسه ضاحكا:

- جود باي فرندز، جود باي فرندز!.

ولم يطلق أحدهما النار!..

وتنهد ماجد:

- أصبحت الهاغانا دولة في قلب الدولة.. حدثنا والدي أنه منذ أيام حـين كـان يرافع في إحدى المحاكم المختلطة أن عصابة منهم دخلت المحكمة شاهرة السلاح واختطفت القاضي البريطاني، لأنه كان يميل أحيانا إلى عدم التمييز في قضائه في خصومات الأراضي فاعتبروه مواليا للعرب.

- لم أنه حديثي، إن الشاب الذي جاء إلى والدي لشراء الأرض هو نفسه الذي شاهدته عند الطبيب، لقد صدف أن فتحت له الباب وصعقتني المفاجأة لمرآه.. إنني لا أنسى الوجوه.

* * *

كان الياهو يزرع شرفة منزله غاضبا وقد تضرجت عيناه الزرقاوان، وقال مخاطبا أخته فورتوني بالألمانية وهو يضحك ضحكة تشنّجية:

- طردني هذا الشيخ المأفون.. سيبيع بستان البرتقال رغم أنفه.. سنقيم فيه المزرعة التعاونية.. أعطتني " الكيرن كايمت " مبلغا محترما لأنفّذ هذا المشروع، والمهاجرون ينتظرون في المعسكرات. كلّهم شبان وشابات، بين السادسة عشرة والثامنة عشرة، سنقيم كلية ومبنى للبنين ومبنى للبنات في هذه البقعة وسنضم بستان البرتقال، ونجعل فيه مزرعة نموذجية فيعمل الشباب ويتعلّمون.

- وإذا رفض الشيخ بيع البستان؟..

- سنجبره على ذلك، لدينا وسائلنا لنجبره على ذلك، وسنرى إن كان يبقى على شموخه وتعاليه حين نطرده من الأرض.

- الياهو، أية روح شريرة حلّت بك؟.. لا يحق لنا اليوم أن نحمل المبادئ نفسها التي أغرقتنا في الشقاء.

وضحك الياهو ضحكته الساخرة:

- أخلاقية!.. اخت الياهو أخلاقية!..

واستمر في ضحكته التشنجية:

- أعطني القوة لأبني إسرائيل، وأنا أحلّك من كل أخلاق العالم..

ولمعت عيناه ببريق مجنون وتلاشت ضحكته:

- أبي أُعدم وأمي انتحرت وأنت تتحدثين عن الأخلاقية؟.. لأننا عرفنا الاضطهاد النازي ولأننا عرفنا أفران هتلر، وإبادته الجماعية لشعبنا يجب أن نتحلل من كـل أخلاقية. كي لا يتكرر اضطهادنا، كي نعيش ونعرف الاطمئنان!.

- لن نعيش ولن نعرف الاطمئنان يا الياهو حين نعتمد على هذا الخط الرهيـب.. خسر هتلر معركته وكان أكفأ منك.. ليس لمذهب القوة نهاية..

- ليس التاريخ إلا تحقيقا لمذهب القوة.

- لست أنسى يوم ألقيت القنبلة يا الياهو في أرض الزيتون على فلاحين يجمعون الحب، الفلذ البشرية لأطفال ونساء ورجال عزل، مررت من هناك بسيارة القاضي البريطاني وشاهدت..

- الأرمل الطيب؟..

- إنه أرمل، ولكنه ليس طيبا..

- إنه طيب على أية حال، ما دام خفف عني العقوبة، واعتبر الحادث دفاعا عـن النفس..

- الياهو، للدم المسفوك روح تستيقظ أبدا وتثأر.. والضعيف يقوى والجاهل يتعلّم، ونحن نبقى حفنة غريبة بين ملايين العرب.

- إن عرفت الرحمة طريقها إلى قلبك ستبقين مهانة محتقرة.. إن من يبني قوة لا يستمع إلى هذا الهراء!.

- إنني بالرحمة أرحم نفسي مما ستجره علينا من ويلات.

- لا تكوني مصدر ضعف لي.. في سبيل مجد إسرائيل لا أتورع عن قتـل مـن يكون مصدر ضعف لي، ولو كانت أختي.

- نعم، إنك لا تتورع.. أعلم ذلك.. لقد اعتدت الأمر.

- ليكن هذا في حسابك.

- كل إنسان قادر على الهدم يا الياهو ولكن ما أقل من يقدر على البنـاء.. قنبلـة ذرية واحدة لا تبلغ حجم البيضة بيد طيار واحد دمرت مدينة بأسرها.. قتلت آلاف السكان أو شوهتهم بدقائق معدودة، ولكن أخبرني كم من السنوات تحتاجها ألـوف الأيدي العاملة لتعيد بناء المدينة؟.. وكم من الجهد والألم والصبر والعنايـة ينفـق لتعود العافية لمن فقدها؟.. وأخبرني أيعيد تكاتف العالم بأسره الحيـاة إلـى جثـة هامدة؟..

- إن أردت بناء قوة أهدم كل ما يعترضها وكل من يعترضها.

- لماذا نلوم هتلر إذن؟.. من حقه أن يقدم القرابين لإله القوة.

- أرفض فقط أن أكون قربانا.

- تظن أنك بلغت القوة؟..

- في الطريق إليها.

- لأنك ألقيت قنبلة على أعدائك، ولأن أختك تنقذك بعهرها؟..

- كل ما يجعلني أضرب بجذوري في الأرض مبرر ومحمود.

- سر قوتك أنك تتحال من أخلاقيتك.. تريد أن تكون متعصبا وأنانيا ولكنني أريد الأمان. وأريد أن أنسى ما اقترفه الغرب الذي تحال من أخلاقيته في حق أهلي.

- تشعرين بالأمان حين تصبح الأرض لنا.. إصبري فقط ولا تخذليني.

- إنني خائفة.

- وأنا أشعر بالخوف بالرغم من كل الوعود..

- أريد أن أحيا بسلام.

- غزو الأرض لا يتم بسلام، ولكننا شعب ماهر بنفخ الأبواق وبشراء الـذمم!.. نريد أن يتم كل شيء بأقل ما يمكن من سفك الدماء.

- لست أحب كل هذا.. أريد أن أخرج من هنا..

- كنت أفكر في أن أجعلك مشرفة على المهاجرات، ولكنك لا تصلحين لهذا العمل وأنت على هذا المستوى من الضعف النفسي.. علي أن أختار من يـؤمن بمجـد إسرائيل!.

- فعلت الكثير من أجل هذا المجد الزائف.. وقرفت..

- ستريـن أنه ليس زائفا.

- أية رابطة تربطني بهذا المزيج العجيب من القوميات؟..

- نحن شعب.

- قلت للقاضي الأرمل نحن شعب، فقال: " أسمعي هذه الأسطورة لغيري، الخالق يعرف المخلوق جيدا!."

- إنه قاض مخرف.

- أحن للثلج والراين والغابات، أعيدوني إلى بلادي!.

- لن تعيدك الوكالة إلى بلادك.

- هُزم النازيون ولم يعد لهتلر وجود.. سأعود لبلادي.

- هنا بلاد أجدادك، واليها تنتمين..

- أتراني من يهود " أوكرانيا " حتى أصدق هذا الزعم؟.. أنـا قـرأت " نيتـشه، وماركس"

- لم تحبي " أورشليم" بما فيه الكفاية.

- لم أحبها ولن أحبها، فليس فيها غابات ولا أنهر وثلوج.

- ولا يهمك مجد إسرائيل؟..

- شوه مجد إسرائيل طبيعتي.

- عودي كي يأتي هتلر آخر ويعدمك في قرن أوسع، ليوفر رصاصه.. كالكلاب الضالة موتي كي تنعمي بالثلج والراين والغابات!.. ولكن الوكالة لن تتركك تفعلين لأنه أكثر إدراكا لمصلحتك.

- ليس من أحد أكثر إدراكا لمصلحتي مني.. أرفض الزيف..

- ليس زيفا، ولكن صبرك نفذ..

- كل شيء زائف حولي.. الدولة والشعب والأرض والمجد والحريـة.. الأرمـل على حق.. الخالق يعرف المخلوق.. لست أنا نفسي، لست أفعل ما أريد بـل مـا تريده أنت، وما تريده الوكالة، وما تريده المنظمة الصهيونية، وما تريده بريطانيا وما تريده أمريكا!.. الزيف استقر في حياتي حتى قلبي، ضحكتي زائفة وحـديثي زائف، ووجودي زائف، ولن ينقذني من الزيف إلا أن أعود إلى بلادي.

- لن تعودي..

- أنقذتك هذه المرة فدعني وشأني.. سهل لي سبل العودة.. لا تفرض علي شيئا..

- لست أفرض عليك شيئا ليس في مصلحتك..

- حتى الأرمل العجوز الذي تجبرني على مصادقته؟..

- لك أن تتخلي عنه، فما عاد له ضرورة.

- وحين تصبح لك ضرورة ما، تجبرني على مصادقة غيره؟..

- ماذا يسوؤك في هذا؟.. ألأنني أتيح لك الحرية؟..

- أنت تتيح لي الحرية؟..

- نعم، كل الحرية!..

- إذن سأختار الشاب العربي في بستان البرتقال..

- هذا لن يكون..

- ولكنك أجبرتني على مصادقته ذات يوم..

- كانت هناك غاية فشلت في تحقيقها..

- كل شيء يجب أن تكون له غاية في نظرك؟

- طبعا..

- مخطط مدروس؟..

- طبعا.

- أنا الغايات لا تهمني.. أحن لشيء حقيقي في حياتي مثل كل النساء.. أن يكون لي زوج أحبه، ويكون لي أطفال سعداء، وأعيش في سلام..

- أخلاقيتك رائعة!.. لقد ورثتها عن أمنا المسكينة.

- رحمة بأمي أنها لم تبق حتى ترى مصير ولديها: ابن قاتل، وابنة بغـي.. مـن يمحو الأدران التي لوثتنا إلى الأبد؟..

- النصر!.. تحقيق الحلم.. ونحن الذين نقودك للنصر والأمان.

* * *

قبض على اسعد

كان المتحدث هو الشيخ وقد أسر به إلى غالب وهما يذرعان الساحة على غرفة الاجتماع فشحب وجه غالب وخفق قلبه:

- كيف؟..

- كان في مهمة مع حامد فنجا حامد وقبض على أسعد.

- ماذا نفعل؟..

- أرى أن تختفي فترة يا غالب أنت وحامد.. سأرسلكما إلى مصر لشراء السلاح وسأعطيك عناوين الأشخاص الذين عليك أن تتصل بهم ويساعدوك فـي تـأمين تنقلاتك وتسهيل شراء الأسلحة وتوصيلها.. ستجدون المـساعدة حتـى ممـن لا يعرفكم، إن " فلسطين " تحز في قلب كل مؤمن وأنتم تـدافعون عـن " المـسجد الأقصى والصخرة المشرفة."

- أفعل ما ترتئيه..

- ستأخذ هذه المهمة شهرا أو أكثر ولا يعلم إلا الله ماذا يجري أثناءها.. أما الآن فمن الأفضل أن تبتعد عن الخطر..

- ولكن لماذا أكون في خطر؟..

- إن دورية اقتحمت منزلكم للبحث عنك البارحة.. وأغلب ظنـي أن أسـعد قـد اعترف بأسماء.. خديجة رتبت لك حقيبة صغيرة بها حاجاتك. فسر على بركة الله فلست آمن أن يكون منزلي أنا الآخر مراقبا..

- وأنت ماذا تفعل؟..

- لا أبارح داري.. قد تضايقني السلطة ولكنني أستطيع أن أنفي وأنكر كل شيء.. فأنا رجل أستقبل كل من يقصدني في بيتي بحكم مهنتي وليس علي حرج.

- وما الذي نشتريه من الأسلحة؟..

- كل ما تقع عليه أيديكم.. ألغام.. مدافع.. بنادق.. مسدسات.. جديـدة أو مـن مخلفات الحرب.. البندقية هنا أصبح سعرها خمسا وعشرون جنيها، أما في مصر فيمكنكم الحصول عليها بخمسة جنيهات.. سمعت بأنها تباع في " مرسى مطروح " بهذا السعر وهي لن تزيد في أسوأ الفروض على عشرة.. ابحثوا حـول مدينـة " الزقازيق " وفي كل مكان فيه معسكرات للإنكليز، فالبدو هناك غالبا ما تكون لديهم أسلحة.. يغافلون الإنكليز وينهبون أسلحتهم..

وضحك غالب، وأردف الشيخ:

- استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان وتجنبوا عيون البوليس.

وذهب إلى خزانة في الحائط ففتح بابها وأخرج أوراقا نقدية:

- أنا جمعت ثلاثة آلاف جنيه من أشخاص راغبين في اقتناء السلاح وثقوا بـي.. مع حامد ألف.. وهاك ألف.. عدها.. واستبقي ألفا اشتري بها صناديق ذخيرة من القرويين الذين يستولون عليه من المعسكرات عند إخلائها..

وعد غالب المبلغ وأودعه في محفظة في جيب سترته الداخلية:

- وأين أجد حامد؟..

- إنه ينتظرك في منزل قرب باصات " يافا- القـدس "، منـزل أبـي مـسعود، أتعرفه؟..

- أعرفه.. ولكن لماذا لا نذهب رأسا عن طريق " يافا- العريش"

- في القدس تقابلان رجلا من النجادة أعطيته عنوانه.. بهذه المناسـبة عنـاوين الإخوة الذين يساعدونكم مع حامد.. ولكني سأعطيك نسخة أخرى..

إن الأخ الذي تنزلان عنده في القدس، يزودكما بجوازي مرور فلا يعترض أحد طريقكما.. والآن وداعا وإلى اللقاء.

وعانق غالب الشيخ مودعا وحمل الحقيبة متوجها خارج البيت، ولم يكد ينـزل الدرج حتى شاهد خديجة في النافذة قد سفرت عن وجهها وأرسلت شعرها، فوقف لحظة محدقا بها فابتسمت ورمت إليه بشيء التقطه..

إنه منديل حريري معطر طرز عليه الحرف الأول من اسمه وبه ورقة صغيرة كتبت عليها كلمة واحدة: "أحبك "

أحس بالنار تشتعل في كيانه واستنشق العطر بكل جوارحه وقد أحس أنـه فـي غيبوبة وقبل المنديل، ولوح به ولم ينتبه إلى أن الشيخ كان يراقبه وهو يصر على أسنانه، ولكنه كاتم غضبه ولم يفاتح خديجة بشيء.. فلقد كان في أعماقه يتمنى أن يكون غالب صهره إلاّ أنه يخشى من نزواته.

وسار غالب والنشوة تملك عليه أنفاسه.. لم تكن خديجة بالنسبة إليه غير أنثـى برزت له فجأة، وهو في شوق لامرأة أيا كانت.. فمنذ عام لم ينعش خيالـه ذكـر امرأة، وأحس بالحماسة تدب فيه.. وعادت إليه حيويته فجأة وملأته بطاقة هائلـة للحب، عارمة شهوانية، فما كان بإمكانه أن يفكر بالحب بطريقة أخرى.

كانت حنان ووالدتها في زيارة أم ماجد في غرفة الجلوس بأثاثها الـشرقي مـن تخوت ووسائد وحشايا وسجاجيد تغطي الجدران والأرض.. وكانت حنان تفـضل هذا المكان على غرفة الاستقبال إذ تشعر بالالفة وتلمح ماجد وهو يخطـر أمـام نوافذ الشرفة، وتسمع صفيره وهو يترنم بأغنية قبل أن يدخل ويسلم.. وكثيرا مـا تجاذبت والدتها ووالدة ماجد أطراف الحديث يشنفان سمعها بسرد تاريخ طفولتـه السحيقة، فلقد كانت أم ماجد تسقط أجنّتها ولم يعش لها طفل سوى ماجد فكان فرح والديه به عظيما.. وكانت ذاكرة الوالدة تحتفظ بكل حركاته وسكناته وهو وليد

وطفل ويافع، وكانت حنان أيضا طفلة محبوبة، إشراقة نور في المنزل وخصوصا لوالدها الذي صب عليها عطفا خاصا بعد فشل زواج أزمعـه.. ونمـا الطفـلان يظللهما وعد أن تكون حنان عروسا لماجد كما يحدث أحيانا بين ذوي القرابـة.. وكان وعدا قائما حتى توثّق ذات يوم بقراءة الفاتحة.

تحدثت أم غالب عما كان من اقتحام الدورية للدار في الليلة الماضية، وأردفت:

- إن أبا غالب يكاد يجن خوفا على البنتين.. ليس من الضروري أن يتهيأ الإنسان تهيؤا تاما في هذه الظروف المضطربة.

- ماذا أطلب من الحياة أكثر من أن أرى حنان عروسا لماجد؟..

وبسطت أم ماجد يديها ضارعة لله أن يحقق الحلم الجميـل.. وهمـست الأم لأم غالب:

- كان يتحدث في نومه وسمعته يهتف باسمها، وهو مستغرق في أحلامه وحـين نبهته وجدته مهموما تعسا.. إنه لا يسر إلي بشيء.. أبينه وبين حنان خـصام؟..

فقالت أم غالب:

- أبدا، آخر مرة زارنا فيها تعشيا معا وكانا فرحين وودعته إلى آخر الطريق.

كانت حنان تتشاغل بتقليب كتاب وجدته على الحشية وقد ضايقها أن ماجد ليس في البيت.. لا بد أن ماجد كان يقرأه قبل أن يذهب إلى السينما.. إن من عادته أن

يترك لها رسائل معينة على صفحات الكتب بالتأشير عليها.. ولكن كـان غفـلا، فقلبته بين يديها وتوقفت عند فقرة:

" ما قولك بمن يشارك حياته امرأة تجعل حياته عبئا رازحـا؟.. علـى الفكـر والحب أن ينظما علاقات الزواج، فالمرأة التي لا تتحمل بسبب ضعفها الجسماني العلاقات الزوجية فإنها لن تشبع شهوات زوجها الجنسية إلا على حساب صـحتها وهناءتها وأحيانا بثمن حياتها.. ذلك أن التعب في العلاقات الجنسية يجعلها غيـر جديرة بواجبات الزواج الجمة، وتبعاته الكثيرة، ويجعلها كثيرة التـأثر والغـضب وينشر على وجهها سحابة من غم وشقاء.. أما إذا كانت قوية وذات صحة جيدة.. فإنها ستكون لزوجها رفيقة في حين أنها إن كانت قابلـة للأمـراض وضـعيفة، فستكون له مصدرا لا ينضب للتكاليف والهموم، وستكون حياتها عالة علـى مـن يحيطون بها.

وليس في وسع امرأة كهذه أن تكون أما لأولاد أقوياء أشداء ولا يمكن أن تحمل قسطا من عبء الحياة أو تكون ملهمة لزوجها بل العكس ستجعل منـه ممرضـا وتحول بيته إلى مستشفى!.. وعلى الرغم من عمى عهد الخطبة فإن الشاب يعرف أحيانا ضعف زوجته المقبلة، ولكن هذه الدقة والرقة لن تكونا في عينيه إلا سحرا جديدا فهو يتخيل اللذة كلها في العناية بها وإحاطتها بحبه ووده!.. فإذا أحببت فتاة كهذه فلا تشك أنك ارتكبت جرما أكبر من جرم الزواج بها. "

هل هذا الكلام موجه لها؟.. وأحست بالإهانة تصفعها وتجهز على قلبها.. وبهت لونها، ودار رأسها ولكنها تمالكت نفسها وأعادت الكتاب إلى موضعه وعلى شفتيها طيف ابتسامة حزينة واهنة.. شيء في صدرها يود أن ينفجر، وانها لتخـشى أن يفلت الزمام منها، وأنهكها الحصر وأحست بنار تنفض أوصالها.. أهـي سـاعة عصيبة؟.. ليس في الكلمات المأنوسة ولا المستوحشة ما يعبر عن العاطفة التـي تدكها دكا.. ليس في الأمر فقد حبيب ولكنه فقد الحب والأمومة، وتدوي في أذنيها الكلمات: " لن ترتكب جرما أكبر من جرم الزواج بها".. أهذا القلب المترع بالحب لن يفيض؟.. أهذه اللهبة للأمومة لن تروى؟.. فما الحياة إن خلت منهما؟.. فـراغ لا نهاية له.. قبل ساعة كانت الدنيا لناظريها يافعة مخضلة بندى الفجر فإذا بهـا تنكمش فجأة نبتة حائلة اللون، جافة العود، تُكوى بشمس الهاجرة وتحول هشيما..

وأعجلت والدتها بالعودة وهي تحاول أن تكاتم ما بنفسها.. وفي البيت كان أبـو ماجد في زيارة والدها..

قال أبو ماجد: إنني بحاجة إلى المال للإنفاق على المنزل الذي ابنيه في القدس..

- ولكن يا أبو ماجد.. إنك تأتيني وأنا في أزمة شديدة وتعلم أنني لو أملك المـال لما قصرت في وفاء دَيني.

- إن قيمة الجنيه تتدهور سريعا وأنا أريد أن أحفظ حقوقي.

قال أبو غالب وقد اشتد به الانزعاج:

- ولكن حقوقك محفوظة.. كتبت لك سندات بها..

- متى تفيني إياها؟.. بعد عشرة أعوام، بعد عشرين عاما؟.. بعد أن تصبح قيمـة الجنيه كالشلن!..

- ماذا أفعل؟.. ماذا عندي لأعطيك إياه؟..

- عندك الأرض.

وهب أبو غالب مذعورا:

- الأرض!.. أبيع الأرض من أجل مئات من الجنيهات أنا مدين لك بها؟..

- أدخل شريكا معك بالمبلغ الذي استدنته مني..

- ماذا جرى يا أبو ماجد؟.. نحن أهل أتخذلني وأنا في أشد الضيق؟.. الحكومـة تبحث عن غالب، ولقد أنذرت أنه إن لم يسلم نفسه للأمن العام خلال أسبوع فـإن علي أ، أدفع الكفالة.. وبدل أن تنقذني من مصيبتي تطالبني بالدين؟..

- أنا أيضا عندي مشاكلي.

- أنا غريق يا أبو ماجد..

- أريد حقوقي.

- يوم بعتك دار أبي لم أفاتش معك.. أخذت منك المبلغ بالتقسيط..

- أنا بحاجة للمبلغ.

- ليست هذه لغة أهل وأنسباء.. ألا تنتظر علي إلى الموسم القادم؟..

- لا أستطيع الانتظار.

- تغيرت كثيرا يا أبو ماجد.

- لم أتغير.

- ربما أنا الذي كان واهما.. كنت أجد فيك أخلص الناس لي.. الرجل الذي يحس بأوجاعي..

- أنا لست إلا رجلا يطالب بحقه.

- ويعرف اللحظة التي يطالب بها.. لن أبيع الأرض.. كن واثقا أنني لن أبيعها فافعل ما تريد.

- سأقيم عليك دعوى.

- دعوى!.. مستحيل علي أن أصدق.. ولكنني أفهم الآن..

- ماذا تفهم؟..

ما يُشاع عنك حقيقة..

- ماذا يُشاع عني؟..

- لا ضرورة لتسمعه مني.. لكأنني بك تقطع الروابط كلها وتدوسها بقدميك.. ألا تفكر بابنك وبابنتي وبالحب الذي يجمع قلبيهما؟..

- هذا موضوع آخر لا دخل له في حقوقي.

- اعتبر دينك مهرا لابنتي.. ليتخذها ابنك زوجـة دون مهـر.. وحـين أغتنـي أعوضها، ولن أكون إلا كريما فهي آثر أولادي عندي.

كانت حنان تصغي، أحست بقلبها المرهف أن هناك أمرا مريبا، وهالها أن تكون موضع مساومة.. دخلت الغرفة دون أن تسلّم، وقالت مخاطبة أبا ماجد:

- أكتب السندات باسمي.. فأنا التي ستدفع لك الدين.. سـأعمل وأفيـك الـدين..

وخرجت دون أن تفوه بكلمة أخرى.

* * *

لشد ما عناها القرار ولشد ما فدح أعصابها.. ولكنها شجعت له وما ينبغي لها أن تتراجع.

أحست بتحد كبير يوقظ كل فعالياتها.. ونمت إرادتها فجأة نموا هائلا.. لن يكبلها أحد بعد اليوم بالقيود.

إنه يوم عيد الأضحى.. ولقد أعدت حنان بنفسها كعك العيد وتزينـت باعتـدال ولكنها بالرغم من هذا فقد بدت جميلة بكبرياء حزنها وبثوبها الحريري ذي اللونين الذهبي والبني الذي أهداه إليها ماجد في عيد الفطر، وبشعرها المنـسدر ببـساطة على كتفيها.

اتكأت على النافذة ترقب قدومه وصدرها يئن بهمومه.. اليوم يشهد جنازة حبها، لن يرى الطريق المشجر القوام الفارع يخطر فوقه في اعتداد ثابت الخطوات ولن تقف وقفتها منتظرة مرفرفة الأشواق.

كان قلبها يتصدع وراحت تغالب دمعها بمشقة.. لا يحسن أن تلتهف فتبـدد مـا حشدت من رباطة جأش للموقف العصيب..

وبدا مقبلا يزف كأنه طائر فأسرع وجيب قلبها.. وراحت ترمقـه وهـو يبـدو ويختفي بين الأشجار. وما كاد يقترب حتى أسرعت إليه تقفز الدرجات الـثلاث الى الحديقة.

ما عرفت كتلك اللحظة مثل ذلك الصراع الحاد في عواطفها. كانت مـن قبـل تسري في حناياها لطيفة كالنور، هادئة كجدول رقراق. وتناولت يديـه تـضغط عليهما بقوة.

كان كعهده مشرق الوجه متلألئ العينين غبطة، وانفعالا، ومن إن ضمتهما غرفة الاستقبال معا حتى امتدت يده إلى جيبه وأخرج ساعة ذهبية.. تناول يدها وهي في ذهول عن نفسها وطوق بها رسغها:

- حتى تعدي الدقائق والثواني في انتظار حفلة القران.. لقد قررت، ولن أتركـك لنفسك يا قليلة الوفاء.

- ماذا قررت؟..

- أعطيك مهلة شهر لا أكثر.. وسأخطفك بعدها شئت أم أبيت.

وسمرت عيناها بالساعة الذهبية الصغيرة.. كانت واجمة أهو صـادق أم أنهـا ضحية مؤامرة؟.. لقد خُيل إليها أن وضع ماجد الكتاب بحيث تقرأه خطة مقصودة وأسلوب لبق لنبذ الخطبة بغير أن يجرح إحساسها، ولكن الأمر يختلط عليها الآن ولا تدري ما تقول.. وحتى لو أحسنت النية بماجد، فكيف لا تسيء الظن بوالـده بعد أن كان منه الذي كان؟.. وكيف تأمن غالب على نفسها وسعادتها؟..

وبدا لها أن شيئا مستحيلا قام بينهما، شيئا لا يمكن لها تفسيره يدفعها لبتر تلـك العلاقة دون تردد.

أمعن ماجد فيها النظر وقد ساءه صمتها:

- أتريدينني على الانتظار طويلا؟.. انتهيت من إعـداد غرفـة النـوم.. ذوقـي سيعجبك!.

ورفعت حنان إليه عينين زائغتين:

- ماجد، أعددت أنت نفسك ولكنني لم أعد أنا نفسي.

- ليس لزاما أن نستكمل كل شيء خلال شهر تجهزين نفسك وأشتري لك بعـض الملابس الجاهزة..

ونظر في عينيها وهو يبتسم فحارت حنان في أمره.. لم تكن تدري فـي تلـك اللحظة ما هو خير لها، ولكنها أحست بخوف من المـستقبل، وشـعرت أن مـن

الأفضل أن يجلو الزمن أمورا تملأ قلبها بالشك والتعاسـة ولا تتعجـل، فقالـت بابتسامة حزينة:

- لست أعني هذا يا ماجد.. إن الأمر لأدق.. لم أعد جسدي لحبنا، فاغفر لي هذه الإساءة التي جنيتها بحقك وبحق نفسي.. لست مؤهلة لأكون زوجة.. لماذا أكـذب عليك؟..

وغصت بالكلمات، وحار القلق في عيني ماجد، فأمسك بذراعها:

- ماذا تقولين؟..

- سأحملك كثيرا وأفجع برغمي أملك..

- لا اصدق.. هراء ما تقولين.

واستعادت الابتسامة وفي عينيها دمعة كبيرة مقهورة:

- ليس هراء.. يجب أن نفترق يا ماجد.. هكذا أشار الطبيب..

- أي طبيب؟..

- الذي يعالجني.. إنني لا أستحقك بظروفي الحاضرة.. أمامي صراع لاسـتعادة قوتي، لست أدري كم يطول ولا أريدك على انتظاري.

فقال ممتعضا:

- علي أهن انتظر؟..

- لا تنتظر.. لا تقيد نفسك بكلمة أو وعد يلزمك على الوفاء.

- وإذا انتظرت؟..

- لا أريد أن أتحدى قدرتك على الانتظار.. أنـت شـاب وحيـد وعليـك أن لا تنتظرني. أحلّك من كل الوعود، فلست أريد أن أكون عبئا رازحا على أحد.

وراحت أنامله تعبث بشعره دأبه إذ يستغرق في تفكير عميق:

- حنان، لن أتراجع عما قررته.. سنتزوج.. ظروفك تتغير وتتعـافين.. الـسعادة والحب يهبان العافية.. وأنت ما بك؟.. وهم كل ما بك..

وتضحك حنان بأسى:

- كنت تتهمني بأنني غير واقعية وأنت أولى بهذا الاتهام مني اليوم.

- حنان، لا ترفضي..

- بل أرفض.. إنها تضحية أنت فيها مغبون وأنا شقية.. وسأموت غما وأنـا أرى حبنا يجف في مجاري الإشفاق الهزيلة.. كنت أتمنى لو أهبك كثيرا، كل ما أملـك من قدرة على الفرح والحب، ولكني غير قادرة.. ليس الحب ملجأ ألوذ به وأفرشه بأشواك تعاستي.. فلأواجه الواقع وتساعدني عليه..

وفاضت عيناها بالدموع.. فأمعن ماجد فيها النظر ليستشف ما بها..

- لكأنّي بك تخفين حقيقة وراء ما تزعمين..

- لست أخفي شيئا..

- لست أدري ما بك.. سأتركك اليوم وأراك في يوم آخر فلعلك تكونين أهدأ وأكثر تعقلا.

- يجب أن تكف عن رؤيتي.

- بل يجب أن أراك.

- لن أسمح.. لقد غدا وضعنا شاذا.. إن كنت تحبني فدعني وحدي.

- لن أتركك وحدك لهذه الروح المتشائمة التي سيطرت عليك.. إنك حتما مجنونة.

- يجب أن تتعلم فراقي.. يصعب الأمر في البداية ثم نعتاده.

- كفى يا حنان.. لاشك أنك في أزمة نفسية وستزول.. سأبتعد عنك إلـى حـين وسأترصد أخبارك.

- لا تنتظر أن تسمع مني فليس لدي ما أقول ولا تدعني عثرة في سبيلك فمنذ هذه اللحظة ليس لي عليك حقا.

وهز رأسه أسفا:

- إنه أزمة انفعال بسبب ضعف طارئ.

وقالت مفسرة وهي تتحاشى نظراته:

- أكره الضعف حتى في نفسي.. أتفهمني؟.. لا أريد مزيدا من العذاب.. حتى في قوتك ما يذلني.. إنك لن تفهمني..

واختنق صوتها ودمعت برغمها عيناها:

- ثق أنني أحمل في أعماقي خيالك وأمل لقاك وستكون حافزي لتغيير الظـروف التي تحيطني ومن يدري؟.. فربما قُدر لنا أن نلتقي..

وكان فراقا هادئا، وخرج ماجد والحيرة والكآبة ترزحان على صـدره، وكـان على حنان أن تكاتم دمعها، فهامت في البستان كالسكرى حتـى أسـدف الليـل، واحتواها فراشها فراحت تبكي بحرقة. ولما حاول رفيق أن يعلم ما بها لـم تحـر جوابا وحين ألح بالسؤال أجابت:

- لقد انقطع ما بيني وبين ماجد.. لا تسألني لم ولا تسمح لأحد أن يذكر لي هـذه الأمور مرة أخرى.. فمنذ الغد سأبدأ عهدا جديدا وأدخل فرع الصحافة.

- الصحافة؟..

- نعم، هذا هو العمل الذي يناسبني.

- ولكن النفقات؟..

- كم تنفق علي كل شهر؟..

- بين الخمسة جنيهات والثمانية.

- أعطني إياها لأ تعلم، وأنا أضمن لك شفاء نفسي في بضعة أشهر.

- ووالدك؟..

- لم يعد لوالدي قدرة على المقاومة فإذا وقفت بجانبي يلين.

تردد رفيق ثم رضي، وأخذت حنان وقد ملأتها الحماسة تجاري الطبيعـة فـي معالجة نفسها.. تغتسل كل يوم بالماء البارد وتتريض، وتحمـل الفـأس تـنكش الأرض حول الشجر، وتكفّ حين تستشعر التعب، وتأكل حين تجوع، وتنام حـين يغلبها الوسن لا تستمع إلى نصيحة أو لوم بأنها بتصرفها تنتحر وتعجل منيتها.

آلت على نفسها أن تفهم سر الطبيعة في جسدها، فلكل إنسان ما يلائمه، والتوتر والهيجان ألد عداها، ومنذ أن تخلصت منهما ومن مسبباتهما تغير حالها فاكتـسبت وجنتاها حمرة خفيفة، ومنذ أن حزمت أمرها على الانهمـاك بعمـل يـستهويها ووجدت هدفها فارقها الإحساس بالتعاسة.. وأُحيطت بجو جديد في المعهد لم يترك لها مجال التفكير في ذاتها.

وبدا لها أن كل ما في الحياة من أحزان وأفراح تأتي على فترات، فـلا حـزن صرف ولا فرح صرد، ولا حزن أو فرح يعـدوان الطـور وإلا كـان جنونـا، والجنون نفسه راحة..الطبيعة حكيمة، وحنان تفهم نفسها.. وتعلم سر ضعفها.. إنه عدم تحقيق ذاتها بشكل فعال، وإحساسها المرهف بأنها عبء فكان المأكل الغنـي والدواء المقوي اللذان خُصت بهما يتحولان إلى سم في جسدها يأكل فيه غريـزة الشفاء.

لم تعد تهتم بشيء سوى ما يتصل بدراستها، وكانت تبعد طيف ماجد من ذهنهـا ولا تحاول أن تلقي نظرة على صوره خوف أن يتجدد ألمها ولكنها في يوم وقـد

ولج به الشوق فضعفت إرادتها، راحت تبحث عنها في درجها بغير جدوى فهتفت مغضبة: " من يعبث بدرجي؟"..

كانت خالدة أمام المرآة في غرفة النوم تقيس أثوابها التي هيأتها لها حنان لدخول " دار المعلمات " نجحت بتفوق، وسألت بابتسامة ماكرة:

- أتبحثين عن صور ماجد؟.. لقد أحرقتها!.

وكادت حنان تتميز من الغيظ وأحست بسخط غريب علـى أختهـا، وجابهتهـا متجهمة الوجه:" لماذا فعلت؟.. إنك تتمادين يا خالدة في أشياء لا تعنيك." وكان هذا كافيا ليملأ بالروع قلب الفتاة، فالتفتت متلهفة وقد اخضلت عيناها وطوقت عنـق أختها:

- أختي، هل كرهتني؟..

وزايل حنان شعور النقمة:

- أعوذ بالله، ولكنني لا أخفي أنني تألمت منك.

هتفت خالدة بحماسة بريئة وإشارات مؤكدة:

- هذا الشاب لا يستحق قلبك.. هذا كان رأيي منذ زمن ولكنني كنـت أخـشى أن أصارحك به..

- كيف لك أن تحكمي؟..

- إنني أعرف أنه أبكاك، وألف مثله لا يستحقون دمعة تذرفها عيناك. ولم أجد ما أنتقم به منه سوى صوره فأتلفتها.

وما استطاعت حنان إلا أن تغضي عن ذنبها والحب رائده، وخمد أوار غضبها فابتسمت، وعادت خالدة إلى تطويقها وهي تتنفس الصعداء.

- ضعي يدك على قلبي، مت رعبا أن أكون فعلت ما يجعلك تكرهينني.

- كيف يخطر لبالك أمر كهذا؟ إنني لا أدري كيف سـأحتمل ذهابـك إلـى دار المعلمات في القدس.. سيفقد البيت ضحكتك المتلألئة، ومع ذلك أغبطك.. إن حظك أفضل من حظي.. ليس هناك أجمل من درب العلم والمعرفة.

لكن خالدة خيبت أمل أختها إثر هذا الحديث ببضعة أيام.

جاء إليها طارق خاطبا، فلما استشيرت في الأمر أطرقت ويداها تنسجان بعصبية وتوتر. فأعادت عليها أمها السؤال فأجابت بالرضى أمام دهشة حنان وامتعاضها..

أقامت مدرسة خالدة احتفالا آخر العام، دعت إليه رئيس البلدية والأعيان وبعض أساتذة المدارس.. ودعي طارق إليه.. وسفرت فيه خالدة عن فتنة ولألاء تبهر بما حليت وتوجت، وما ارتدت من قطيفة وحرير في التمثيلية التي أقامتها المدرسة في هذه المناسبة..

كانت كوكب الحفل بعينيها الساحرتين، وشفتيها المخضبتين، وثغرهـا البـراق، وصوتها القوي النبرات، وحركاتها الرشيقة.. وتهامـست النـسوة عمـن تكـون

ورسمت عليها المسيحيات منهن شارة الصليب لتحميها غائلـة الأعـين الحاسـدة ودوت الأكف بالتصفيق لنجاح الاحتفال.

ووزعت الهدايا وتقدمت خالدة في الطليعة ترتدي الثوب الأزرق الذي أوفت بـه حنان الوعد، بابتسامة رقيقة وانتخبت لها أثمن هدية، " قافلة من خـشب الزيتـون صنع بيت لحم ".. ورفعتها ليراها الجميع وانحنت برشاقة وسـط عاصـفة مـن التصفيق تاركة المسرح إلى حيث جلس أهلها في الصف الثاني وهمست لحنان:

- هل شاهدت طارق بين الأساتذة؟..

- كلا..

- انظري إليه، في طرف المسرح.

وأجالت حنان بعينيها حتى وقعتا عليه.. كان يبتسم لخالدة وهي تبادله الابتسام.. ولم يمض شهر حتى جاء لخطبتها.. كانت العائلة تأسره.. وفي اللحظة التي فهـم فيها أن حنان مخطوبة، انتقلت عاطفته لأختها بسهولة ويسر.. قال لأبي غالب:

- لقد عُينت مدرسا في القدس في كلية أهلية وسأسلم المدرسـة هنـا إلـى أحـد المعلمين لإدارتها.. سأسافر إلى القدس خلال أسبوع وأحب أن أعرف رأيكم حتى أباشر بترتيب أموري.

- هل ستجعل إقامتك في القدس؟..

- والدي يفضل العيش في القدس.

- حقا، سمعنا بعودة والدك من معتقل سيشل، وفرحنا فرحا كبيرا.. كيف صـحته وكيف همته؟..

- صحته منهارة ولكنه لم يفقد الأمل.

- إنني لا أعرف والدك ولكنني أسمع به، وأحمل له الإعجـاب الكبيـر لمواقفـه المشرفة.. أنتم عائلة مجاهدة وأفخر بمصاهرتكم.

وأشرق وجه طارق بشرا:

- متى نعقد القران؟..

- حين ترغب.. ما دامت خالدة موافقة.

كان أبو غالب يحاول أن يبدو أبا غير متسلط يرعى مصلحة بنتـه ولا يـضع العثرات في سبيلها.. كانت تجربته مع حنان تملأ قلبه بإحساس أليم بالذنب كأنمـا هو مسؤول عن تعاستها.. ولقد ترك طارق مرة بعد أخرى وذهب لاستشفاف رأي خالدة:" لا تقولي بأنني فرضت عليك شيئا، وحرمتك العلم، إن أحببـت أعطيتـك مهلة للتفكير."

- أنا موافقة.

وتنفس أبو غالب الصعداء:

- وأنا من أنصار الزواج المبكر للفتاة.

أما حنان فكان امتعاضها كبيرا من هذا الزواج المبكر الذي لا مبرر له فهتفـت بخالدة محنقة:

- وعلمك ودار المعلمات؟..

وضحكت خالدة وقد توهجت عيناها:

- لا أحسب أنني أملك الصبر لأحتمل التزامات العلـم، ولـست أريـد أن أبقـى عانسا.. كنت أجتهد لأبرهن لك أنني قادرة، ولكنني أفضل الزواج، وإنجاب الكثير من الأولاد، وطارق شاب ممتاز.

- أنت تختلفين عني.. إن تحقيق الذات عندي أقوى من الرغبـة فـي الـزواج، وإنجاب الأولاد.. أتعلمين أنني انتسبت إلى معهد الصحافة؟..

* * *

كان أبو طارق في الستين من عمره أبيض الشعر غائر الوجنتين ملتمع العينـين يلح عليه خاطر عاش معه عشرة أعوام، أن ينتقم من الرجل الذي وشى به وحمله كل هذه الآلام..

كرس شبابه لحركة التحرر منذ نشوئها فلما فشلت ثورة سبع وثلاثـين واعتُقـل ونُفي نال الأذى نفسه فأصبحت رغباته وحشية.. لم يكن يريد أن يمـوت وذلـك الخائن الذي أخبر السلطات عنه وجعل حياته جحيما بين الأحياء، فكيف به وهـو يراه ينعم بخيانته ويقطف ثمارها؟.. سأل عنه واستدل إلى بيته في " حي الـشيخ

جراح " خارج أسوار المدينة القديمة، فإذا به أمام منزل فخم وحديقة غنّاء.. أنّى له كل هذا، مجرد شرطي صغير؟.. رآه يتبختر بخطى واسعة ويمشي على الأرض ثقيل الخطا وهو يدخّن.. كان حسن الهندام وعلى باب داره سيارة خاصة، وظنّـه البستاني متسولا.. لما يرتديه من ثياب خلقة فطرده..

- هكذا إذن يعيش الخائن؟.. أليس هناك شعب يحاسب؟.. ألم تـدن بعـد سـاعة الحساب؟.. ما قيمة التضحيات التي رضي بها، والأخطار التي تعرض لها إذا كان عليه في النهاية أن يطوي الجراح ويرسل التنهدات العاجزة. بينما يجـر الخـائن أذيال خيانته متباهيا بها، وافر النعمة بسببها؟..

كان من الممكن أن يقضي نحبه في المنفى، ولكن فجأة أفرجت السلطة المنتدبـة عن المعتقلين وسمحت لهم بدخول البلاد.

كانت بريطانيا تعاني من تمرد اليهود على سلطتها وترى أنهم منذ عـام 1942 ومنذ " مؤتمر بلتيمور " في ذلك العام سلموا مصيرهم للولايات المتحدة ولم يعـد باستطاعتها أن تشبع أطماعهم ونزواتهم التي لا كابح لها، فرأت أن تقيم نوعا من التوازن في البلاد فكان ذلك الإفراج عن المعتقلين العرب.. ولكن عشرة أعوام من النفي تركت أثارها المزمنة العصية في جسد أبي طارق ونفسه، فلـم يعـد ذلـك الرجل القوي البنية السليم الطوية الرخي النفس.. كان واغر الـصدر، مـستريبا

بالناس، مستهجنا حالهم وتصرفاتهم وقبولهم ألوان الـذل دون مقاومـة.. لمـاذا انطفأت نار الثورة، لماذا لم تستمر، لماذا يبقى خائن على وجه الأرض؟..

وسكب ثورته على مسمع طارق كمن يسكب في النار مادة لاهبة:

- الشعب الذي لا يحاسب مصيره الهلاك يا بني، شعب يستحق كل مـا يعـاني، يستحق أن يبيد، يستحق أن يذله المحتل ويدوسه بالنعال.

- ويرفض أبو طارق اعتذارات ابنه بأنه شعب مقهور:

- كلا، ليست قلوبنا تبحث عن الحرية والكرامة.. أهناك شعب يقهر إلا لأنـه لا يحاسب المسيء فيه؟..

ويضطرب صوته كاشفا عن حدة انفعاله:

- لو أن الخائن يقطع إربا.. لو أنه يوضع على الخـازوق، لعـرف أن جريمتـه تعاقب فيكف عنها قبل أن يقترفها.. ولكن أين الذي يحاسب!..

ويتملكه شعور الغضب حين يلمس فتور حماسة طارق ويبدو له ابنه من جيـل فقد بعض رجولته، ويخيب أمله فيه، وينقل طرفه بعينين تائهتين زائغتين محـاولا أن يمتلك رباطة جأشه. ثم يقنع نفسه بأن كل شيء تغير: البلاد، والزمن والأبناء، وأن الرغبة في السلامة هي طابع الجميع.

وتفجعه اللامبالاة وهو يقطع الطريق من سوق الخضار إلى منزله قرب حـائط المبكى.. الناس جميعا لاهون بشؤونهم الصغيرة عن الأحداث التي تعصف بهم..

الخباز يتحرك بنفس الطريقة الميكانيكية التي كان يتحرك بها منذ عشرة أعـوام، يسأله عن غيبته الطويلة دون أن يتوقف لحظة عن رق العجين والتلويح به حتـى يصبح كورق اللفافة قبل أن يضعه على الصاج الحامي.. الناس في بيع وشـراء متكالبون على تحصيل قوتهم.. الفلاحات يسرن منتصبات وعلى رؤوسهن مفارش الخضار، وبعضهن انتحين ركنا مناسبا وتربعن على الأرض لبيع مـا عنـدهن.. الناس يقفون في صف طويل يحملون البطاقات للحصول على الرز والسكر. فنظام التقنين الذي أخذ به زمن الحرب لا زال ساريا.. وبعض السواح يتطلعون بإعجاب إلى واجهة محل يبيع تحفا من خشب الزيتون.. وخيل إليه لحظة أن القيامـة لـو قامت في تلك اللحظة لما توقف الناس عن البيع والشراء، والمساومة والدوران في حلقة شؤونهم الصغيرة.. وفي المسجد الأقصى كان الشيخ يتحدث عـن النجاسـة والطهارة، فالمدرس تؤجره الدولة، فإن تطرق إلى السياسة أُبدل بغيره وما أكثـر الذين كانوا يُبدلون، وعند المساء كان غناء ينبعث من أحد الدور المجاورة لمنزله في استقبال نسائي مع ترنيمة العود!..

سنون الشقاء العشر في المنفى وتكسير الحجارة وقلع الأشواك، والفقرات التـي التوت في عموده الفقري، وتسبب له الأوجاع الأليمة يغفرها جميعا لو رأى لهـب الثورة يتّقد في قلوب الناس، لو رأى التصميم على التحرير لم تشبه شائبة. وبدا له أن المحتل استطاع أخيرا أن يقهر كل مقاومة، بتوجيه ضربته إلى صفوة الـشعب

اعتقالا ونفيا، وأن تجميع القوى في اللحظة الحاسمة بات متعذرا، فكثير من القادة الذين أُفرج عنهم لم يُسمح لهم بدخول البلاد في تلك المرحلة العصيبة التي يشرف فيها الانتداب على الانتهاء. ويواجه فيها الشعب الفلسطيني عدوا مرتاحـا متأهبـا للانقضاض مشجعا ومدفوعا من القوى العدوانية ذاتها التي تتربص به، وتقمعـه وتسلبه كل قوة.

جاء الأهل والأصدقاء للسلام عليه وتهنئته بالرجوع كأنما هو حاج طال غيابه.. كانت معزوفته الوحيدة، الخيانة لا تُحاسب.. والخونة الذين يرتعون ويمرحـون.. ولكن أحدا لم يكن يعاني ذلك الهوس الذي يقض مضجعه.. هـو الرجـل الـذي عركته الأيام ونذر نفسه للقضية كأنما هي داء عضال أنشب فيه مخالبه لا يترك له إلى الراحة سبيلا، فلا يسليه ما يسلي الناس ولا تشغله مشاغلهم الدنيوية.. همـوم البلد تزوبع في رأسه وتدوم كالطاحونة..

- إنني أعرف من أين يأتينا الفشل.. من الذين يطعنوننا من الخلف.. من الوشـاة والسماسرة لو تركناهم وشأنهم، يلقون بنا أرضا ويصرعوننا قبل أن ينال العـدو منا.

ولكن الناس حوله كانوا مشغولين بأمر العدو الذي يحشد قوته، ولا يريـدون أن يقتحموا معارك جانبية تثير المخاوف وتحطم المعنويات، فكان أبو طارق يـصغي وقد جمدت ملامح وجهه التي نال منها الإرهاق والخيبة..

ذاع في الآونة صيت " عصابة شتيرن" لما تقوم به من أعمـال إرهابيـة ضـد الإنكليز، فكان العرب يشعرون بالارتياح المشوب بالدهـشة دون تحليـل كـاف للظواهر الجديدة، فبقوا دون حركة آملين أن يستنزف أعداؤهم قوتهم.. وكان هناك شبه إجماع أن " منطقة القدس "ستكون في مأمن لاعتباراتها الدينية والدوليـة إذا نشبت معركة.. وكان أصدقاء أبي طارق حين يجتمعون عنده يناقشون تلك الأمور ويقارنون بين المعاملة المتساهلة التي تأخذ بها الـسلطة الإرهـابيين الـصهاينة والقسوة الفظة التي عومل بها العرب حين قاموا يدافعون عن كيانهم، وكيف كانوا يعاقبون شنقا وحبسا ونفيا ومصادرة وغرامة.

كان بين أصدقاء أبي طارق صاحب معمل صغير لصنع الصابون، وخياط فاشل في " سوق العطارين".. وشيخ استغنت السلطة عن خدماته في التدريس في الجامع الأقصى، وصاحب أرض على " جبل الزيتون " جرد منهـا لتوسـيع المـساحة المحيطة " بالجامعة العبرية ومستشفى هداسا " بحجة أنه يساعد الثـوار بالمـال.. وحلاّق يمارس مهنة الختان، وأستاذ في " كلية الروضة الوطنية " قُتل أخوه فـي حادث قنبلة ألقاها اليهود في سوق الخضار في الثورة الماضية.. وكان هو الـذي سعى لطارق بوظيفة في الكلية ذاتها التي انتقلت من خارج المدينـة إلـى داخـل الحرم.

قال الأستاذ وهو في الأربعين مفرط الطول، نحيل القامة، يضع نظـارة علـى عينيه ويرسل فوق فمه شاربين دقيقين:

- أخشى أن يزرع أحدهم قنبلة داخل الحرم.. في فندق الملك داوود " قتلـوا مـا يقرب من مائة وتسعين شخصا، إنكليز وعرب، وقبله هدموا مبنى المخـابرات.. إنهم يقتحمون معسكرات الإنكليز ويسرقون الأسلحة!.

- الإنكليز يسهلون لهم السرقة.. في المحاكمة ظهـر أن جماعـة مـنهم تـسهل للصهاينة السرقة..

كان المتحدث صاحب الأرض وهو في العقد الخامس متـين البنيـان متقـارب العينين حليق الوجه..

وسأل أبو طارق:

- ماذا فعلت الحكومة؟..

- فأجابه صاحب المعمل، وهو رجل ضئيل جم النشاط ذكي النظرات:

- إنها منهمكة في تفريغ البلاد من العملة.. تأخذ الذهب وتعطينا أوراق النقد دون غطاء.. لماذا هذا الغلاء؟.. أفرغت الخزينة من الاحتياطي.. نهبتنا نهبا.

ورد الأستاذ على أبي طارق ردا مباشرا:

- سيدي، طلبوا من الوكالة اليهودية أن تتدخل لقمع الإرهاب!..

- نحن، " اللجنة العربية العليا " حلّوها واعتقلوا أعضاءها.. لم يكن لنا يـد فـي الاضطرابات.. فقط كنا نريد إنقاذ الأراضي.

- الوكالة سيدي، صارت دولة في قلب الدولة.. الحكومة تعلن رغبتها في التعاون معها لقمع الإرهاب. كأنما يحدث شيء خارج مخططاتها.. هي التي تتـآمر مـع الإرهابيين!..

وعلّق الشيخ وهو من " رجال المفتي ":

- لعن الله حظنا كم هو سيء.. لا ألمانيا انتصرت فأنقذتنا من اليهـود.. واحـتج الأستاذ:

- كيف تقول ألمانيا.. كل بلائنا من ألمانيا.. اضطهدوا اليهود فازدادت الهجرة إلى بلادنا.. العالم كله يعطف عليهم اليوم ويقولون لنا أنتم متوحشون لأنكم لا تشفقون على اليهود!..

وابتدأت الشكوى المألوفة في ذلك الحين، نريد أن نعرف ما ذنبنا نحـن حتـى يختاروا " فلسطين" لهجرتهم.. أليس في العالم بلاد أخرى؟.. لماذا لا تؤويهم البلاد التي تملك المساحات الشاسعة من الأرض؟.. كنـا 87% سـنة 1922 فـصرنا 65% والحبل على الجرار.. إن استمرت الهجرة أصبحنا أقلّية في أرضنا!.

وتلاها شتيمة للقادة العرب الذين لا يتآزرون، وللجامعة العربية التـي لا تجـد وسيلة لإنقاذ " فلسطين " إلا الاحتجاج..

كان الجميع في ارتقاب لما سيفعله المفتي الذي اختار مكان إقامته في القاهرة.. وفي انتظار ما يجري أشار أبو طارق إلى ضرورة تكوين لجنة شـعبية لحمايـة الحرم في تلك الظروف المضطربة.

وتطرق البحث إلى كيفية الحصول على سلاح للقيام بهذه المهمة فكان الخيـاط ذو العينين القلقتين، وقد فرغ صبره من معالجة إبرته في تعديل الثيـاب القديمـة للآباء لتصلح للأبناء، أشدهم حماسة لهذه المهمة التي تتناسـب وزلاقـة لـسانه وحيويته البالغة.

وجه أبو طارق الحديث إلى ابنه بعد ذهاب ضيوفه:

- ما معك من النقود يا بني؟..

فاحمر وجه طارق، وقال:

- في غيابك وعدت فتاة بالزواج وعلي أن أهيئ غرفة نوم لها.

واستاء أبو طارق مرتين.. لأن وعدا بالزواج يجري في غيابه، ولأن مالا يُدفع ثمن الخشب و " فلسطين " مهددة بالزوال.

لاحظ طارق اكفهرار وجه أبيه، فأطرق:

- الفتاة ممتازة يا أبي، إنها ابنة أبي غالب.. وهو من " يافا " يملك بستان برتقـال معروف بنضاله في ثورة 37 ومساعدته الثوار.. إنه يحترمك جدا ويقدرك ولقـد طلب مني أن أحمل لك تحياته وصداقته.. وهو يفخر بمصاهرتنا.

وفارق أبو طارق تجهمه:

- ما اختلفنا.. إن والدتك رحمها الله لم تنجب لي إلا البنات وقد تزوجن في غيابي، وأريد أن أفرح بك وأنا في راحة بال.. أهناك مناسبات كثيرة للفرح عندنا؟.. أريد أن أجمع الأصدقاء كلهم لتكون مناسبة لا تُنسى، مظاهرة يوم النصر، أولم الولائم، وأذبح الذبائح لإخوتي في النضال، ممن أعرف وممن لا أعرف، كم طارق عندي!..

- ولكن يا والدي أخشى أن لا تستطيع الفتاة الانتظار. اعترضت مستقبلها ومنعتها من دخول " دار المعلمات" فأنت تعلم ما تتطلبه التزامات العلم للفتاة عندنا، وهي تعجبني ولا أريد أن تنفلت من يدي. ولا أجد مبررا لزواج حافل يكلّف الكثير، يفرحنا يوما، ويحملنا عبء النفقات أعواما.

- ولكن في هذه الظروف؟..

- لا تتوقف الحياة من أجل الظروف.. وعملي يؤهلني لأكون، أسرة، ولن أُشغل أكثر من غرفة في هذا البيت الكبير.. أوصيت فعلا على أثاث لغرفة النوم ودفعت العربون..

كان طارق يريد أن يضع والده أمام الأمر الواقع، فما لبث الأب أن تراجع، وقال:

- يا بني، لا أريد أن أعترض حياتك.. ليس في هذا البيت سوى العجائز. جـدتك وعمتك.. فليشرق الشباب والأطفال فيه.. جيراننا سـيخلون الـدار بعـد شـهر ويسافرون إلى " سوريا " وأستطيع حينذاك أن أعطيك الطابق السفلي بأكمله، ثلاث غرف.

وأسرع طارق في اليوم التالي إلى دار الأيتام الإسلامية " حيث يصنع الطـلاب أثاثا من أفخر أنواع الجوز متقنا أنيقا، وأوصى على أثـاث غرفـة نـوم ودفـع العربون..

* * *

أصدرت " هيئة الأمم المتّحدة " قـرارا بتقـسيم فلـسطين، الـساحل الخـصب للصهاينة، والمنطقة الجبلية للعرب.. وتجمع في الأفق دخان عمي لثورة ما، سرت حمياها في الأعماق منذ عرفت فلسطين الانتداب ومهازل الانتداب، يـصعده فـي الجو بركان واغر بالأحقاد.. بدأ توتّر اشتد ضرامه، وتباين ما بين القوميتين وفار فائرهما.

وكثرت الاعتداءات، وكل اعتداء ينغر الصدور ويحتفزها لأمر خطير. وما عاد الخوف يكبت ألسنة الإعلام عن توضيح الأمور للرأي العام، وإن كانت الحقـائق تنتقب نقابا شفافا من التورية.

وجلس ماجد قرب المذياع يحرق اللفائف واحدة إثر الأخرى، وجوارحه تهتـز ارتقابا.. كم لهف إلى الجرأة في إعلان الرأي.. ما عاد في طوق أحد كبـت إرادة الجماهير، وأحس ماجد بالانفعال ينفضه كالحمى، إنه في توق إلى شـيء، إلـى ثورة، ويرتاح لتلظيها.

كان الألم الذي يستشعره في أعماقه يود أن ينسى نفسه في ألم أقسى منه.. لا بد أن تتشكل في الأيام القريبة فرق ثورية وسينخرط في إحداها، فما دام العالم عاجزا عن إقامة العدل فمن العدل أن يحمي الإنسان حقه بيده ويدفع عن نفسه الأعـداء.. وابتسم وهو يفتح درجا في الخزانة تحت المذياع ويخرج منه مسدسا يقلبه بين يديه بعناية وحذر..

كان أبو ماجد واقفا يحلق ذقنه ويسقي شعره الفاحم بماء العطـر وهـو يـستعد للخروج كعادته كل مساء.. وكان يراقب سكنات ماجد منـذ ذلـك اليـوم الـذي انفصمت فيه الخطوبة، دون أن يدخل معه حديثا صريحا، فشاهده يعبث بالمسدس فالتفت وقد شحب لونه:

- ما هذا يا ماجد؟..

فأجاب ماجد بهدوء:

- إنّه مسدس.

- ما حاجتك إليه؟..

- عجبا، قد تنشب الثورة وتسألني ما حاجتي إليه؟.

- ما شأنك بالثورة؟.. للثورة رجالها!..

- من هم الرجال؟..

- إن كنت تظن أن في البلد قادة وزعماء فأمك خائب.. فرطوا كالعقـد وأخلـوا الديار قبل أن تنشب المعركة..

- هناك فرق ثورية ستتشكل عن قريب.

- ليس هناك إلا المتعصبون الأشقياء من رجال المفتي ".

- أنترك قرار التقسيم ينفّذ دون أن نحرك ساكنا؟..

- لتطبق السياسة على رؤوس أصحابها.. إنهم يزعمون أنهم يـدركون مـداخل الأمور ومخارجها. وأنهم سيحسنون التصرف في اللحظات الحاسـمة.. لنتـركهم وشأنهم فليس لنا في البلد شيء.

كان أبو ماجد في لهفته وخوفه من فقدان ولده الوحيد يسيء معاملته تحت ستار الحب مذ كان صغيرا، فيحرم عليه كل ما يعرضه للأذى.. وكان حين يراه يلعب مع صبية الجوار يهر عليهم بعصاه فيفرق جمعهم ويسوق ماجد أمامـه للبيـت.. ولكنه كان من ناحية أخرى يغدق عليه الهدايا والملابس، ويحقق رغباته ولا يمنعه إلاّ مما يمكن أن يناله بسببه أذى.. فكانت تلك الرغبات التي لم تحقق أحـب إلـى ماجد من كل ما عداها.. وشب ماجد كما شب صبية الجوار، ولم يستطع الوالد أن

يقطع الروابط الوثيقة التي نمت بين إبنه وبينهم. فكانوا يجتمعـون فـي حـانوت أحدهم وهو بائع " نوفوتيه " يدعى عارف يتناقشون في كل المواضيع وخصوصا فيما يتعلق بحال البلد.. وكان بين رفاقه أسعد وهو شاب يتيم قُتل والده في ثـورة عام 37.. ولم يكن تجاوز العاشرة بعد.. اصطدم يومها أبو ماجد في الظلام على مقربة من بيته بشيء ظنه كومة خشب، فإذا به جثة ثائر سقط تماما عنـد عمـود الكهرباء، ولم يكن ذلك الثائر إلا والد أسعد.. ولم يتم الفتى دراسته فاشـتغل فـي الحدادة، وكان مغرما بسن الأمواس الصغيرة، وسرقة الفاكهة من بساتين الجوار. وحين شب التحق بالثوار وسُجن ثم أُفرج عنه لصغر سنّه إذ لم يكن بلغ الـسابعة عشرة من عمره.

وكان ذلك بمساعي أبي ماجد الذي أخذ بإلحاح بتبصير إبنه بالنتائج التي يمكـن أن يترتب عليها طيشه وتحديه للسلطة إن سار في الدروب التـي يـسير عليهـا أسعد.. وجد في المدة الأخيرة أن من الأفضل أن يشغل إبنـه بـأمور لا تتعلـق بالسياسة، ولهذا كانت تلك الخطوبة المبكرة، وتلك الوعود بـشراء الأرض ليقـيم عليها مزرعته النموذجية.. ولكن أبا ماجد ما لبث أن اقتنع بأن الخطر يكمن لابنه في ذلك الجو الذي ظنه أمانا له.. فإن أسعد قبض عليه مـؤخرا بتهمـة جديـدة، فجاءت أمه وهي امرأة مغلوبة على أمرها، وانكبت على يديه تقبلهما بذلة وانكسار أن ينقذ ابنها.. ولكن أسعد كان اعترف بأشياء خطيرة تحت التعذيب وجاء تقريـر

من مركز البصمات يثبت بأن أسعد هو نفسه الذي أطلق النار على التـاجر منـذ عام.. وخلال تلك القضية عرف أبو ماجد بعلاقة غالب في الأمر، فتغير موقفـه فجأة.. وأصبح عدائيا وإن كان تصرفه ظل يتسم بالحياد..

وضع ماجد المسدس في جيبه، وقال:

- هل نقف مكتوفي الأيدي بعد قرار التقسيم؟..

- الشباب عليهم الانقياد لا القيادة.. أنتم أغرار تذهب الحماسة بلـبكم فتركبـون الشطط.. والأمور بحاجة إلى سياسة وتدبير..

- ولكن الجماهير تغلي.

- كثيرا ما دفع قوم الثمن غاليا بسبب حماقة الجماهير..

قال ماجد، نافذ الصبر:

- وجهونا، قودوا خطانا، نظّمونا.

- تريث، لا يفيد الاندفاع في شيء.. نحن تحت الانتداب، إن رصاصـة صـدئة تسبب شنق من توجد في حوزته من العرب.. أنا محام، وأعرف..

- قال ماجد، في استخفاف:

- كان هذا في الماضي، أفلتت الأمور من أيـديهم الآن.. فـي سـوريا طـردوا الإفرنسيين، ونحن سنطرد الإنكليز.

وضاق صدر أبي ماجد:

- هل تفرح لإفلات الأمور؟.. هل تفرح لعصابة المفتي تقتـل النـاس لأنهـم لا يلتزمون برأيها؟..

- لا يحزن الإنسان لمقتل الخونة.

وازرقّت سمرة أبي ماجد الشاحبة، وارتجفت شفتاه تحت شـاربيه الـصغيرين الفاحمين وارتسم في عينيه النسريتين غضب جارح:

- هناك قانون، هناك عرف ولا يخون إنسان لمجرد أن عدوه في الرأي يـدعوه خائنا.. أناس رفضوا التقسيم وأناس رضوا به.

- يا لهم من كرماء!..

- ليس كرما، خوفا من مصائب أكبر.. وليس من مبرر لقتل مـن يختـار رأيـا مخالفا لغيره على طريقة قطّاع الطرق.. لو استلمت جماعة المفتي مقاليد الأمـور سنترحم على أيام الإنكليز..

- نترحم على الإنكليز الذين أورثونا الصهاينة والتخلّف ويعرضون علينـا اليـوم التقسيم!.. كل تغيير يكون للأحسن ولا يكون للأسوأ في رأيي.

- أنا لا أستبشر بالخير.. إني أعرفهم.. في اللحظة التي ينتهي فيها الانتداب تبرز أنانياتهم وتستعر خصوماتهم ويذبحون بعضهم بعضا.. ألا ترى ما يجري والسلطة فوق رؤوسهم، فكيف إذا انفلتوا منها؟.. وعلى فكرة أريد أن أحذّرك من رفاقك..

وهب ماجد واقفا ووقف أمام النافذة مديرا لوالده ظهره:

- أبي، لم أعد طفلا كي تختار لي من أصادق..

- من حقي أن أفعل إذا كانوا من النوع اللامسؤول الذين يلقون بك في المهالـك.. انظر إلى مصير أسعد الصياد، ألا يجعلك تعتبر؟..

- ماذا فعل أسعد؟.. إنه مسكين وحظه سيء.

وتمعن أبو ماجد في إبنه محاولا أن يجد الكلام المناسب لانتشاله من ذلك الوسط الذي يهيمن عليه:

- ماذا فعل أسعد!.. طالب النائب العام بإعدامه.

والتفت ماجد وقد غامت عيناه الواسعتان الصريحتان بـذعر حـزين وسـخط واضح..

- دافعه وطني.. تركنا في العام الماضي وانقطعت أخباره.. ولكنني لست أشك أنه فعل ذلك لشراء أسلحة للدفاع عن " فلسطين ".

- ليس متهما فقط في محاولة فاشلة لسرقة " بنك باركليس "، ولكن فـي جريمـة قتل.

- جريمة قتل؟..

- نعم سيدي، متهم بجريمة قتل تاجر حدثت في العام الماضي.

- السمسار!.. فعل ذلك أيضا بدافع وطني.

قال أبو ماجد وهو يرتدي سترته ويكاتم غضبه:

- هذا لا يمنع أنه سيعامل كمجرم ويُحاكم كمجرم ولن يُنظر إلى دافعه الـوطني بعين الاعتبار!.

وعدل ربطة عنقه مرة أخرى أمام المرآة، وأضاف:

- الدوافع الوطنية كثيرا ما كانت ستارا لنوازع أخرى.. باسـم الثـورة تتـاجر جماعات بالأسلحة وتغتني من ورائها. والدافع الوطني يتخذ ذريعة لتبرير عمـل لصوصي أو انتقامي. إن جلّ زبائن البنك وإن لم يكن عربيا هم من العرب، فـأي حق لأسعد وجماعته أن يتصرفوا بمال ليس لهم؟.. أنا مثلا أحتفظ برصيد لي في هذا البنك حصلت عليه بجهدي وعملي.. أليس لي الحق أن أحتفظ بثمرة أتعـابي وأترك ثروة لابني الوحيد؟..

وأطرق ماجد وهو صامت وفرك عينيه كأنما يستيقظ من حلم.. كان دائما يجـد في منطق والده شيئا مغايرا لقناعته، ثم لا يلبث أن يكتشف فيه بعض الحق. ثـم يلتقي برفاقه فيتبخر من ذهنه ما قيل، ويشك فيه وينغمس في حماسـتهم المثيـرة لنوازعه.

وأدرك أبو ماجد أنه استطاع التأثير على ابنه، فأردف:

- تلفنت للمشتل الزراعي وستصلك الأغراس التي طلبت غدا عند العصر.

وابتهج ماجد ثم لم يلبث أن أحس بالقلق:

- ولكنني حتى الآن لم أفهم تماما وضع هذه الأرض.

- ألم تعجبك؟..

- أعجبتني.. ولكنني أريد امتلاكها وأريد أن أدفع ثمنها بنفسي.

- لا تهتم بهذه الأمور.. إن قضيتها معقدة بعض الشيء.. فيها شركاء كثيرون ولا أريدك أن تتعب ذهنك بمشاكلها القانونية.

- لا أحب غموض الأمور.

- أي غموض!.. إزرعها واستفد منها إلى أجل غير مسمى..

- ولكنني لم أدفع ثمنها.

- ما الفرق بين مالي ومالك؟.. من لي في الدنيا سواك؟.. ألا تخجل من نفسك؟..

وعبق وجه ماجد بحمرة قانية وخلد للصمت ثم نظر في ساعته، ونهض:

- إنني ذاهب للسينما.. حان الوقت.

- لاحظت أنك لا تذهب لزيارة خطيبتك.

- انقطع ما بيننا.

- هكذا دون سبب؟..

- يبدو أن صحتها ليست على ما يرام..

- لا تبتئس، ربما كان هذا أفضل لكليكما.

- كيف يكون أفضل؟..

- الحياة مع زوجة ضعيفة حياة شقاء.. إنها تدفع رجلها إلى كل الحماقات الممكنة.. إتعظ بتجربتي، أنا لا أعيش مع أمك حياة طبيعية.

- ولكنني أحبها.

- لهذا كنت أصمت ولا أتدخّل في شؤونك.. أنت قوي البنية كالحصان الفتي وهذه الفتاة كالطيف لا يمكن أن تلائمك.. هذا رأيي ولو كان قاسيا.

كان أبو ماجد قد استكمل هندامه فخرج وهو يهمس لنفسه هابطا درج الطابق العلوي:

- إنه حزين ولكنه سينسى.. لا أرغب أن يتم هذا الزواج ويشقى إبني كما شقيت مع والدته.. ويا ليت الأمر وقف عند هذا الحد.. عائلته مشاكل.. وماذا يأتي من رجال المفتي إلا المشاكل؟..

كانت أم ماجد كما علمنا دائمة الإجهاض لآجنّتها، تُصاب بأنزفة رحمية تجعلها طريحة الفراش أياما طويلة، ولهذا كانت تغض الطرف عن سلوك زوجها، ولا تسأله بتاتا عن تصرفه خارج البيت، وتلاطفه بالمعاشرة الحسنة وتسعى جهدها لإرضائه داخل المنزل. وترى بينها وبين نفسها أن ذلك الوضع أفضل من أن يأتيها بضرة شرعية.

ولم يَضارها أبو ماجد إذ كان ما يلقاه من رعايتها وعطفها وتغاضيها وما ينالـه في الخارج من إشباع لنزواته ما يغنيه عن تغيير وضعه وتعكير راحته.

ولم يذهب ماجد إلى السينما.. نكأ والده جراحه وعادت ذكرى حنان لتفعم قلبـه شوقا وأسى حتى أحس بأن الضغط الذي يعانيه لا يمكن احتماله، وهمس لنفسه:

- سأذهب بنفسي لأقابل هذا الطبيب الذي يعالجها. أريد أن أفهم الحقيقة من كـل جوانبها.

كان الطبيب غاضبا لأن جريس باع مزرعته أخيرا إلى شركة صهيونية وقـرر السفر إلى أمريكا اللاتينية، والاستقرار نهائيا هناك. وبدا لحنان متشائما على غير عادته، كارها للناس جميعا.. مرتابا سيء الظن بهم جميعا، وأخذ يردد:

-هذه البلاد ليست لنا، نحن لا نستحقها، نحن أعداء أنفسنا، فرديون أنانيون، ذئاب تنهش بعضها بعضا.

وحين لم تتفق حنان معه هز رأسه مشفقا عليها:

- ضعي لائحة فوق سريرك واكتبي عليها :" كل من يحوطني ذئاب فلأحذر." لا تثقي بأحد، ولا تغتري بابتسامة تحمل في طياتها رغبات شريرة.. اسمعي منـي، من رجل حنّكته التجارب وعرف معدن الناس الصدئ..

ونفرت حنان من لهجته الكئيبة ومزاجه العكر.. وبدا لها معذبا مريضا مـشتت الذهن ضيق الصدر بالحياة، وأضاف:

- لشد ما أخشى عليك براءتك ووداعتك ونظرتك إلـى الحيـاة بهـذا المنظـار الوردي.. كم أتمنى لو تستبدلينه بمنظار أسود فترين كم هي خبيثة نفوس النـاس وكم هي وضيعة أحلامهم.

ولكن، لم يقول لها مثل هذا القول، وما مناسبته ولماذا يلقي بظلّ كآبته عليها؟.. وضحكت لتبدد الجو المتوتّر، ولكنه أكمل:

- ستذكرين يوما كلام الرجل الماثل أمامك، رجل يهمه أمرك، رجل لا مصلحة له في هذا القول، وإنما يشعر براحة، أن يحذّرك ويجنّبك آلام اللحظة التـي تفقـدين فيها ثقتك بالناس، وتبين لك حقيقتهم العارية. ستذكرين يوما نـصيحته وتهـزين رأسك آسفة:" كان على حق."

وهال حنان تلك العزلة النفسية التي يعيش فيها ذلك الرجل الذي يبدو لها وكأنّـه موسوعة متنقّلة.. ما فائدة كل معرفته إذا كانت تصل به إلى تلك النوافذ المسدودة في الحياة؟.. إلى انعدام الثقة بالخير الكامن في نفوس الناس.. أي شيء يعذّبـه؟.. أي شيء يجعله هكذا مملوءا بالعقد؟.. كان من الصعب عليها أن تفهمه، وراقبتـه صامتة وهو يهز رأسه بحركة عصبية ويجمع حاجبيه. وحز شفته السفلى وبـرم شاربه كأنما تعاوده ذكريات مزعجة:

- إنني أستغرب، أستغرب كيف تجهلين أو تتجاهلين أن النفوس البشرية مفطـورة على الشر.. لو أساء إليك أحد كيف تتصرفين؟..

- أحاول أن أعرف دافعه لذلك.. إنني مستعدة أن أفهم وأن أعتذر عن المسيء..

وتنهد قائلا:

- قد لا يكون له عذر.. لا شيء إلا غريزة الشر الكامنة في نفسه.. هاك أبـسط مثل: إنني أومن بأن للطير حق الحرية والحياة ولكنني لا أتورع عن اصـطيادها لهوا لا لسد مسغبة، فأي معنى لهذا؟..

وأحست حنان بانقباض ولكنها ابتسمت تريد جاهدة أن تتجاهـل تلـك النزعـة المرضية التي كشفت لها فجأة، فلا تدفعه للخطأ:

- ما أغرب أطوارك، يا دكتور.. الناس تلبس أفعالها الحلل القشيبة وأنت تريد أن تقنعني بأنك شرير.. هذا يدل على أنك تحاسب نفسك كثيرا.

- قد يحاسب الإنسان نفسه ولا يملكها.. يكفي أن يفكر الإنسان بالشر ولا يفعلـه ليكون شريرا..

وهزت رأسها غير موافقة:

- نحن نحكم على الإنسان بتصرفه لا بخوالجه.. كل النـاس تخالجهـا خـواطر شريرة وتزول، ولكن الخطر أن يتركها الإنسان ترتع في النفس أمدا طـويلا دون كبحها فتخرج بكل بشاعتها إلى عالم الواقع..

وقال بارتياح:

- أنت على حق، الشرور كالسموم مفعولها مزدوج. فهي وإن تسبب الموت يمكن أن تصبح دواء إن تحفّظنا في استعمالها بالمقدار الكافي والوقت المناسب..

والتمعت عيناها بوهج الحماسة:

- أترى؟.. إنني لا افترض أبدا أن الناس ملائكة.. نفوسهم أشبهها بخليـة نحـل، البعض يجني منها عسلا والبعض لسعا.. لا يمكن لك أن تجعلنـي أهجـر ثقتـي بالناس وأضعهم في قائمة الأشرار، وأنت أولهم..

وضحكت لتزيل التوتّر:

إنني إن تعلمت شيئا جديرا في هذه الحياة بالعلم، فهو أن المحبة أعظم حقيقة فـي الوجود. إنني أحب نفوس الناس بألوانها المرحة أو القاتمة، إنني لها صديقة وكلما ازددت في تحليلها، عمقا ازددت لها حبا أو بها رحمة..

ابتسم وربت على وجنتها:

- لو كان للإنسان أن يختار دينه، لكنت اخترت المسيحية حتما في ثوبها القـشيب أيام المسيح.. وأنا على نقيضك تماما في طباعي.. أنا لاأسامح! لو كـان لـي أن أختار لاخترت الإسلام: العين بالعين والسن بالسن، المحبة في رأيي عاطفة سلبية هزيلة لها طابع الإشفاق، ولكن الحب والكره عاطفتان ديناميكيتان. يجب أن يحب الإنسان ويكره.. يكون حيا، يكون إيجابيا، يكون ممتلئا بالحياة. الحب فـي رايـي أعظم حقيقة في الوجود لا المحبة.. ولكن المجتمعات كلها كانت عدوة الحب.

كانت أم غالب قد هيأت الإبرة وجاءت بها ثم عادت لتعد شراب الليمون، فـشد ذراعها بالمطاط وأمسك بالإبرة فراحت يده تهتز، وهرب الشريان تحـت بيـاض فجوة كوعها وفشلت التجربة عدة مرات.

واحتدم وجهه وتلألأت حبات العرق على جبينه، وأخذت حنان تهون الأمر عليه مبتسمة، وتقدم ذراعها صابرة محتسبة حتى كانت الوخزة العاشرة فنجحت.

وغسل يديه بالكحول، وجلس على طرف السرير وتباسم وهو يحدق بها:

- بلغ بي الكبر وأدبر الشباب الغرير.

- أنت!. ليت الشباب يملكون روحك وأفكارك الشابة.

- أو حقا تبالين بما أقول يا حنان؟..

- كيف لا أبالي؟.. أذكر كل كلمة في أحاديثك واحتفظ بكل ما كتبت، انظر!..

ورفعت طرف الفراش وتناولت كدسة من قصاصات المقالات التي يكتبها فـي إحدى الصحف.

- أترى؟.. إنني أتتبع كل جديد في آرائك.

نظرت إليه.. كان بادي الانفعال بطريقة أربكتها وأدهشتها معا وأمسك بذراعها:

- أية عاطفة تحملينها لي؟.. تكلمي، هل تسخرين مني؟..

ورشقته بنظرة جامدة، وقد شحب وجهها:

- عاطفتي صريحة واضحة.. إنني أقدرك.

- لا أستحق التقدير.. هل تفهمين؟..

كان بالنسبة لها نصف إله وفجأة هوى من حالق وبدا لها إنـسانا عاديـا ككـل الناس.. لم يكن يعي ما يقول:

- إنني أخفتك.. فاعترفي بأني إنسان شرير..

واستبدت به عاطفة طاغية ليستعيدها، ليستعيد إجلالها وحبها الذي ولّى، ولم يعد رزينا وقورا كما كان..

- حنان لا تحقدي علي.. إنني وحيد أحس بأنني أفقد انتمائي للحياة..

كانت صامتة وتحسست قلبها كأنما لا يخفق.. كانت حزينة حتى الإعيـاء.. لـم تكن تريد له أن يتورط بكلام يخجله.. إنها أزمة نفسية ولا يمكن لها أن تهينه من أجلها أبدا.. قالت بفتور:

- أنت اليوم تحب أن تمثل دورا لتقنعني بأنك شرير..

قال مدافعا عن نفسه دون أن يمتلك السيطرة عليها:

- ليس هناك من شر إذا استطاع أن يبرره الإنسان..

وتهالكت على وسادتها عاقدة ذراعيها خلف رأسها.. كانت محتفظـة بهـدوئها وعيناها تنفذان إلى أعماقه.. وبدا لها شخصا آخر غير الذي تعرفه، ومـلأ قلبهـا بكآبة موحشة.. لماذا يخون ثقتها، لماذا يهدم الحاجز بين الخير والـشر؟.. أهـو سيء أم أن للرجال طبيعة لا تفهمها؟..

كانت لحظة رهيبة شهدت فيها حنان أغرب صراع في نفس إنسانية عميقة فـي خلجاتها.. كانت شفتاه ترتجفان وعيناه تحدقان بها ولا تريانها، كان يخمـد بجهـد جبار عاطفة خبيثة شبت نارها في أعماقه والتهمت فيه كل اتزان.. تنهد وقال:

- نحن بشر نحتاج إلى عطف.

- دائما كنت أحمل لك الحب والإجلال.. ولكنني لست أفهم الآن أي عطف تريد..

بقي صامتا مطرقا وتملّكه خجل احتدم له وجهه.. نهض فجأة كأنما ينفض عـن نفسه مرضا غازيا.. وابتسم وتألّقت عيناه خلف نظّارتيه:

- عطف ابنة على والدها..

انبسطت أساريرها ومدت يدها مصافحة:

- لو خُيرت في الانتقاء لما انتقيت سواك والدا لي.

بقيت طويلا تفكر به وهي حائرة مضطربة.. كانت أشد حزنا عليه منـه علـى نفسه.. وعذرت ماجد في تصرفاته التي كانت تزعجها.. وشعرت أنهـا وحيـدة، وهمست لنفسها والدمع يطفر من عينيها، ألا يمكن للفتاة أن تجد بين الرجال صديقا ولو بينهما حاجز أربعين عاما وملّة أخرى؟..

* * *

عجب الطبيب لذلك الشاب الأنيق الحليق الوجه المتفجر الحيوية والعافيـة فـي غرفة الانتظار. لم يكن من زبائنه ولم يكن سواه عندما دخل العيادة، فسلّم عليـه

بهزة من رأسه ودلف إلى غرفته، وخلع جاكيته، وارتدى ميدعته البيضاء. ثم فتح الباب وأشار له أن يدخل. ونظر إليه مستفسرا من وراء نظارتيه المذهبتي الإطار:

- خير إن شاء الله..

وعبق وجه ماجد، وقال:

- لم آت لاستشارة طبية، جئت فقط لأستفسر منك عن فتاة تعالجها هي خطيبتي..

- من هي؟..

- حنان..

أغمض الطبيب عينيه وهو يحس بأنفاسه تتلاحق وبلع ريقه وخُيل له أنه يستعصي ويسمع له هسهسة:

- ماذا تريد أن تستفسر؟..

- أرجو أن تكون صريحا معي، فعلى أقوالك ستُبنى أشياء كثيرة في حياتنا أو تنهدم..

وتفرس الطبيب فيه.. أنت إذن ماجد.. وشعر بالمقت له.. كان ربيع الفتى يتحدى خريفه، ووسامته تسخر من عينيه المتعبتين وأنفه الذلف، وغضارته تفضح تجاعيد وجهه.. هذا الرجل سيخطف حنان ولن يراها بعد اليوم.. لن يجد إنسانا يصغي إليه ويحبه ويجله بتلك اللهفة والحماسة اللتين تتميز بهما سن الثامنة عشرة

وتمنى لو يشفيه تشفيا وانتقاما لعاطفته المقهورة.. كان يقنع نفسه بأن من الأفضل لحنان أن لا تتزوج.

لا يمكن أن يتصورها أسيرة رجل.. وبدا له ماجد محدود الذهن، ضيق الأفق.. لماذا حكم عليه هذا الحكم، لا يدري، إن سحنته لا تروقـه.. لـن يـسعدها، لـن يفهمها.. لن يكون كفؤا لها.

كان يتصفح سجلا أمامه وعينا ماجد معلقتان على شفتيه وقد خُيل إليه أن وراء تلكئه طعنة يسددها إليه..

وأمسك الطبيب بجموح خواطره.. أحس فيها الأنانية المخجلة.. ما شأنه هو إلاّ أن يكون صادقا في شرح حالتها!.. وانتصرت نوازعه الخيرة كعادته:

- إن حنان على خير ما يرام.. كنت أشك بشيء وتبينت خطئي.

- حقا تقول؟.. أليس هناك ما يمنع زواجها؟..

- أبدا.. إذا كنت تجد في نفسك القدرة على إسعادها فلا تتأخّر!.

- ليتني جئت إليك من قبل.. كنت مترددا أخشى أن أسمع شيئا آخر..

قال الطبيب مؤكّدا:

- إنها بحاجة فقط إلى السعادة والظروف الحسنة للعيش.

وعبق وجه ماجد من فرحته وارتباكه، وشكر الطبيب وخرج وهو عجب لأمـر حنان. وما لبث أن ركب الباص متوجها إلى بستان البرتقال.. وقف بالباب دهـشا للتحول الذي طرأ على البستان في غيابه.

كان الشجر في الجهة القريبة من الأرض المشاع قد قُطع واحتشد فيـه العمـال وهم على قدم وساق ينشئون مبنى يبدو من اتساعه وبساطة هندسته كأنّه ثكنـة أو مدرسة..

واستقبلته حنان شاحبة، فأمسك بيديها الباردتين ورفعهما إلى شفتيه ثم ضـمهما إليه.. كانت مستسلمة حزينة النظرات وأشارت إلى النافذة:

- أرأيت؟..

- ما هذا حقا؟..

- ألم تسمع ما حدث؟.. ألم يخبرك والدك؟..

- والدي في القدس.

- والدي في السجن..

- في السجن؟..

- اقتطعت الحكومة ثلث بستان البرتقال ومصادرته تـسديدا للكفالـة والـضرائب المتأخرة، ولم نلبث أن شاهدنا العمال في اليوم التالي يقتطعون الشجر وقد وقـف

"الياهو" يُصدر إليهم الأوامر.. ثار والدي وهجم عليه بالعصا فشج رأسه فقُـبض عليه وأودع السجن!.

أجهشت حنان بالبكاء.. كان الجو الذي يسيطر على أفراد العائلة جوا جنائزيـا كأنما فقدوا عائلهم.. ولم يستطع ماجد أن يحدثها بما جاء من أجله، فقـال وهـو يودعها:

- سآتي لزيارتك في يوم آخر فلدي ما أقوله لك.

* * *

لم يلبث أن انتهى البناء وجيء إليه بالمهاجرين الشباب، أربعين فتى وفتاة مـن جنسيات مختلفة، تدل عليها اختلاف ألوانهم وهيآتهم. رأتهم خالدة وهـي تقطـف ليمونا قرب الحاجز الإسمنتي الذي فصل البستان إلى قـسمين. وأسـرعت إلـى المنزل تذيع النبأ لاهثة الأنفاس.

- رأيت الفتيات يلبسن الشورت كالفتيان ويحملن الفؤوس ويقمن بحراثـة الأرض حول البناء..

وقفت حنان في نافذة الطابق العلوي تنظر بصمت إلى المشهد المرح للمهاجرين وهم في هرج ومرج يعملون ويضحكون. وأنشب في صدرها غـضب جـارح، وذهبت إلى مهدها دون فطور تجتر ثورتها طوال الطريق. وتتساءل كيف نـشأت المأساة وإلى أين تنتهي.

الجيل الذي أربى لا يدري من تاريخه الحديث إلا صورة غامضة كأنمـا هـو غصن أمرد هصر من ماضيه.. وأين يتعلم ما قدم وما حدث من أمور، أفي بيـت أغشاه سبات الجهل أم مدرسة يحدجها المستعمر كارها،أم بلد يتجسس فيها أعوانه وتُكتم فيه أنفاس مناوئيه؟..

كانت حنان تطل من نافذة الباص إلى جموع النـاس الـذين يتراكـضون فـي حاجاتهم اليومية دون أن يبدو عليهم أنهم يحسون بالخطر المحدق بهـم ودون أن تعتكر نفوسهم قلقا لمصيرهم. وفي الشوارع اليهودية كانت جماعات من النـسوة العربيات متلفعات بالملاءات يحتشدن أمام المحلات التجارية، والسينما وصالونات التجميل، يهرقن المال العزيز المنال في جيوب الأجنبي، وكأن قرار المقاطعة حبر على ورق.

- لماذا فُطر الإنسان على الاستهانة بالخطر العام مادام عنه بعيدا لم يمسسه كمـا مس جاره بالضر؟..هل يجب أن يصبح خطرا داهما يغرق الكبير والصغير حتى تتحد إرادتهم في دفعه عنهم؟..

ودارت حنان المكتبات المحدودة المعروفة تبحث عن كتاب يرشدها إلى حقيقـة الأيام القسية التي مرت على فلسطين منذ كان الانتداب فلم تعثر له على أثر.. أية مكتبة تجرؤ على ظلم عبقري وأيام معتكرة الظلمة في فلسطين فتجلو نوايا خبيثـة أسنيت فيها الوعود لشعب دخيل على حساب أصحاب الحق. وتنفّذ تحت حـراب

المستعمر.. كانت الخطّة المبيتة أن يبقى كل فرد وحيدا مع مصيبته، مشلول اليـد عن دفعها.. كم هي مجرمة تلك الكلمة التي تختفي والناس فـي أمـس الحاجـة إليها!.. الذاكرة التي تختزن ماضي تجاربها تتصرف بردود فعل غريزيـة فـي الملمات..

وخطر لبالها أن تمر بدار تلك المجلة التي تبعث إليها بالمقـالات والترجمـات. فلربما استطاعت الحصول من هناك على معلومات ترشدها إلى معرفة الحقـائق التاريخية لتجعل منها أساسا لمقالاتها.. ومن يدري فلعلّها تقوم فيها بعمـل ثابـت فتنفق على دراستها بنفسها..

كانت الدار في طريقها إلى المعهد فاعتطفت جرأتها وسألت عن رئيس التحرير شابا طويلا نحيلا فضي البشرة حالك العينين والشعر وقف عند الباب معتـضدا. فارتسم في نظراته الجد مع الهزل وسألها عما تبغيه منه.

- بعض معلومات.

وتفرس فيها.

- أتعرفينه من قبل؟..

- نعم..

- هل أنت متأكّدة؟..

وتململت حنان:

- رأيته مرة وأنا طالبة عندما جاء للتفتيش.

- كهل صغير العينين؟..

- نعم، ولكني أعرفه أكثر من مقالاته وتعجبني جرأته الأدبية..

ابتسم بمرح، وقال:

- هل أنت من قراء المجلّة؟..

- نعم..

- أتعجبك؟..

- نعم، منذ أن صدرت بثوبها الجديد.. إنها عاصفة..

وضحك:

- حقا خطت خطوات جريئة.

- أرجوك إنني في عجالة، هل رئيس التحرير موجود؟..

وابتسم بخبث:

- إن من تعرفينه ليس رئيس التحرير.

- هذا لا يهم.

- إنه أحد أقاربه ويحمل نفس الاسم.

- لا يغير هذا شيئا في الموضوع.. إنني في عجالة وتسلبني وقتي.

وضحك:

- غضبت!.. يبدو لي أنك لا تحبين الإسهاب في الحـديث علـى عكـس بنـات جنسك.. إسمك يا آنسة؟..

- حنان..

- هل سبق لك أن بعثت بمقالات إلى المجلة؟..

- نعم..

مد يده مصافحا:

- ما كنت أظنك في مثل هذا العمر.. إن لغتك وفكرك يسبقان سنك، تفضلي دون إذن.

وأرشدها إلى المكتب بعد أن جاوزا الآلات وأكداس الورق والعمال، كانت النار تتأجج في المدفأة ولكنها لم تجد هناك رئيس التحرير.

- أين رئيس التحرير؟..

وجلس وراء المكتب بهدوء:

- يبدو لي أنك نافذة الصبر.

- إنني عادة طويلة البال ولكن مثل هذا التصرف لا يرضيني، وعلي أن أكون في المعهد الصحفي بعد عشرة دقائق.

- هل أنت طالبة في المعهد؟..

فلم تجب واستدارت متهيئة للخروج.. لماذا لا يعرف الشباب الفرق بـين الجـد والهزل؟..

ورن الجرس:

- ماذا تفضلين؟.. شاي، قهوة؟..

- لا شيء.

وراح يفتح درجا:

- آنسة حنان، لدي مفاجأة لك.

واستدارت دهشة ممتعضة بعض الشيء..

- تفضلي بالجلوس.

- مستعجلة.

- لا بأس عليك إن تأخرت بضع دقائق..

وأخرج من بين أوراقه رسالة ناولها إياها:

- إنها رسالة لم تتم، لقد أشغلت عنها فتفضلي واقرئي.. إنها مصادفة سعيدة.. أن تأتي بنفسك..

وخفق قلبها ترقبا..

- كان في نيتي أن أستدعيك لأسلمك عملا صحفيا في المجلة فما رأيك؟..

- ولكني لم أبدأ دراستي الصحفية في المعهد إلا منذ أمد قريب..

- الصحافة موهبة تصقلها الدراسة.. لديك الملكة وبـعض المـساعدة تنجـزين الأمور على أفضل وجه.

ورن الجرس مرة أخرى وهو يرنّق إليها النظر:

- شاي أم قهوة؟..

- شاي، أعتقد أن حضرتك من بعث إلي برسالة التهنئة، الخط مماثل.

وهز رأسه باسما، فأردفت:

- حضرتك رئيس التحرير؟..

وهز برأسه مرة أخرى:

- إن من تعرفين ابن عم ابن عمتي، ولكن بما أننا كثيرا ما نتزوج داخل العائلـة فإنك تجدين بضعة أشخاص يحملون نفس الاسم. نحن ثلاث حمديات.

وبرز صبي عند الباب..

- كوبان من الشاي.. إنها عادة سيئة..

- أية عادة؟..

- الزواج في الأهل.. أبي أول رجل في العائلة تمرد وتزوج شركسية..

- أرى أنك تحمل ملامح شركسية.

وضحك:

- كيف تميزين؟..

- عظام الوجه عريضة، لون البشرة زاهية، القوام سمهري، تحتاج فقط إلى قبعة شركسية.

وضحك مرة أخرى:

- يجب أن أُحسن الرقص أيضا وهذا مالا أتقنه.. أو أكون فارسـا وهـذا فـوق طاقتي.

- ولكنك فارس الكلمة..

- إنها تكلفني كثيرا.. غرامات، مصادرة أعداد، المجلة لا تغطي نفقاتها.. ولكنني أقول يكفي أن تكون متنفسا للأقلام الصادقة.

- شكرا لك.. شجعتني في خطواتي الأولى.

- ما حظك من الثقافة؟..

- ثقافتي شخصية..

- لا بد أنك تختارين بعناية ما تقرئين؟..

- إنني مشتركة في المكتبة العامة.

- من تفضلين؟..

- لست في مرحلة مفاضلة، أقرأ لمن تسوقهم المصادفة إلي..

ودال إلى الغرفة شاب معتدل طلق المحيا أسمر البشرة لامع العينين ذو شاربين مقلمي الطرف وهو يمسك بمجموعة أوراق وضعها أمام المكتب:

- تفضل!.. هذا هو المقال وأتمنى أن ينال رضاك.

ومر رئيس التحرير بناظريه على الأوراق في عجالة، وقال بغضب:

- قلت لك لا أريد هذه اللهجة المتحدية.. في مثل هذا الجنون الشعبي يجب أن لا نزيد النار اشتعالا ونحن ندرك بواطن الأمور وإلى أين تؤدي.

- ولكن سيدي، كنت تحبذ هذه اللهجة..

- انجرفنا أكثر مما يجب مع إرادة الجماهير.

- هل أفهم أن علي ان أحبذ قرار التقسيم؟..

وتأجج غضب رئيس التحرير:

- أهذا ما فهمته مني؟.. أتكون وطنيتي موضع الشك إذا قلت لك بأنني أكره هـذه اللهجة الحمقاء المتعالية التي تشبه أغنية" خلّي السيف يقول " إنني رجل أعـرف مسؤولية الكلمة.. " الكلمة التي تكبر كثيرا تصغر أفعال صاحبها عادة."

كان الشاب مرتبكا وحمل الأوراق والتفت للخروج. وخُيل لحنان أنهـا تعرفـه، فجأة التمع في ذهنها وجهه في أول عهدها بالضرب على الآلـة الكاتبـة حـين تشابكت أصابع الآلة الكاتبة، وأُسقط في يدها فتقدم زميلها المجاور ودالاها لها..

وناداه رئيس التحرير وهو يخرج من درجه مجموعة من الأوراق:

- جهاد، انتظر لحظة، انشر هذا المقال في العدد الذي يصدر غدا.

وقعت عينا جهاد على حنان وبدت فيهما الدهشة والحرج ثم خرج.

والتفت رئيس التحرير إليها، وقال:

- سيصدر لك المقال الأخير في العدد القادم.

- شكرا.

- أتحبين أن تنشب حرب؟..

- إنني غرة في الشؤون السياسية، ولكنني أعلم أننا مظلومون وعلينا أن نـرفض الظلم.. الأرض تُنزع من تحت أقدامنا بأساليب رهيبة.

وأسجد إليها النظر وابتسم بغموض فلم ترتح لابتسامته.. إن أسنانه الدفق تذكرها بمديرتها السابقة، وغريب ان تتدامج الشخصيتان لخيالها في تلك اللحظة، ولكـن حين انحنى فوق مكتبه رافعا عينيه النجلاوين إليها بدا طيبا، وتلاشـى شـعورها الأول. سألها عن حاجتها ولم يلبث أن دخل الصبي يحمل صينية الشاي، فحدثتـه باختصار عن غايتها وهي تحلّي كوبها، فأجاب:

- عندي نسخة يتيمة فقدت من الأسواق، وأنا حريص عليها أشد الحرص، ولكنها عندي في المنزل، فإن مررت غدا أحضرتها لك.

وبينما راحت ترشف كوبها، أعاد عرضه عليها بالعمل في المجلة.

- سأسلمك صفحة المرأة.

- لا أهتم بالأزياء والتجميل وقصص الحب التافهة.

- ابحثي عن القضايا الاجتماعية، مشكلة الزواج مثلا..

- لا استطيع والبلاد على أبواب حرب.. لا يمكنني أن انفصل عن أعمق مشاعر الناس في هذه الآونة.. ألا تعجبك مواضيعي؟..

- تعجبني، ولكنني أفضل أن أحدد لكل مجالا ما يتقنه.

- لست أجد حافزا للكتابة إلا فيما يثير اهتمامي في زمن معين.

- على كل حال، فكري في الأمر..

ودت لو تسأله عن الأجر المتخلّف لبضع مقالات نشرت، ولكن الخجل تملّكها فصمتت.. وتدفق بأسئلة مستفسرا عن شؤونها مما ضايقها، لماذا يرفع الكلفة ويتجاوز الحد؟..

وفي اليوم التالي حين مرت لتأخذ الكتاب، سألها:

- ما رأيك أن نذهب إلى " سميرأميس" ؟..

ونظرت إليه شذهة:

- من؟.. أنا؟.. لا تنسى أنك تخاطب فتاة مسلمة!..

- أتخشين أن تُلسني؟..

- بل إن بيني وبين أهلي ثقة لا أريد فقدها.. إنني أبيح لنفسي بعض الحرية ولكن في سبيل العلم لا في سبيل التسلية.

وأعجبها ذلك الجواب الموفق عن الثقة التي تزعمها.. لم يكن في الواقع من أحد يثق بها ثقة عمياء إلاّ رفيق.. وحتى الآن لا تدري كيف يكون ردود فعل والدها

حين يعود ويراها قد سفرت وذهبت تتعلم في معهد مختلط.. كانت تريد أن تبنـي شيئا إيجابيا فتجعل والدها يرفع رأسه بها لا أن يغضه خجلا بها.. إنه يبـدو لهـا متساهلا أحيانا، أكثر تطورا من سواه، ولكنه لا يلبث أن يتراجع وتتحجرمفاهيمـه ويتصرف بغيرة هوجاء، أورثته إياها السنون على شرف المرأة. فيضيق الحـدود التي يسمح لها بالحركة فيها، ويكبح بالحب حينا وبالسلطة الأبوية أخرى كل رغبة لحنان في أن تنطلق إلى العالم، وترسخ فيه ذاتها.

وابتسم الأستاذ حمدي ابتسامته الغامضة:

- أحب أن أحدثك بشيء ولكنني لا أجد الجو هنا ملائما.. ألا أستطيع أن أزورك في منزلك؟..

- تستطيع أن تزور عائلتي ولكنني لن أستطيع أن أقابلك بنفسي.

- لماذا؟..

- هكذا تقاليدنا..

- ولكنك سافرة، وتعدين نفسك لتكوني صحفية.. الأمر ليس منطقيا.

- أعلم ذلك.. ولكن المجتمع الذي حجزنا ألوف السنين لن يسمح لنا بالتطور دفعة واحدة.

- يجب أن تكافحي..

- إنه صراع أليم.

- هكذا دائما صراع الأجيال..

- ليس كجيلنا.. كان الأمر مستتبا في الماضي.. أما اليوم فكل شيء تغير..

- إنني أجد حاجة ملحة لرؤياك فمن يدري؟.. كثيرات يتمنين لو ألقي عليهن نظرة عطف وكثيرات يلاحقنني، ولو أطلعتك على الرسائل التي تردني لعجبت، ولكنـ ك الفتاة التي أبحث عنها، لقد أعجبتني!..

ونظرت إليه دهشة.. إنه جيل الكبت، إنه جيل مثار لن يفهم نوازع المرأة أبـ دا إلى الحرية.. كانت واثقة أنه ليس الحب.. إنه جيل يلهث وراء كل أنثـ ى، وآلـ ت على نفسها أن تحتمل تلك المزعجات بصبر وتصدها بكبرياء.. لماذا إذن يذكرها الرجال أبدا بأنهم رجال وهي فتاة؟.. لماذا لا ينظرون إليها نظرة الند ويحادثونها حديث الند؟..

لو كانت شابا لكانت أحرص من أن تعلن عواطفها متسرعة خوف أن تندم على فوهتها، بل انتظرت وخبرت فلا تعثر..

- شكرا لعواطفك، ولكنني لا أحب أن أتكلم بلغتين في آن واحد..

- ثقي أنني لست شابا يلهو.

- لا أفكر في هذا الآن.. أود أن أحقق أشياء أخرى.

ابتسم ابتسامته الغامضة كأنما هو خبير في نفوس العذارى.

- أشجع طموحك، وإن كنت واثقا أنه ينتهي على عتبة الزواج.

قالت بغضب:

- كيف؟..

- لأنه ليس غاية.

- بالنسبة لي غاية..

- كثيرات بدأن بداية حسنة ثم انتهى أمرهن بالزواج..

كانت متوترة الأعصاب فنهضت تريد أن تشجب الحديث:

- قد أفعل العكس.. قد أتخلى عن الزواج من أجل هذه الغاية!.

* * *

أرجعت الكتاب بعد أن فرته بحثا وتنقيبا، واستقبلها الأستاذ حمدي بترحاب كبير..

- فكرت فيك طويلا.. إنك تعجبيني أكثر..

أطرقت صامتة.

- أهناك شخص آخر؟..

وهزت رأسها بالإيجاب..

- هل ما بينكما رابطة وثيقة؟..

- إنه خطيبي..

- لست متختّمة..

- الأمر لا يعدو خطوبة ولكن الرابطة قلبية.

- متى تتزوجان؟..

- هناك بعض الحوائل ترغمنا على تأجيل الزواج، فحين تتلاشى أعود إليه.

- ما هي الظروف التي تحول بينكما؟..

وساء حنان أن تغوى على الإجابة عن شؤونها الخاصة بمثل هـذه الـسهولة.. حنان إنك لا تحسنين فن ردع الناس عن إقحام أنفسهم فيما يعنيك وحدك.. وتكلفت الابتسام، وقالت وهي تقلب صفحات الكتاب بشرود:

- هل في مثل هذه الأحوال يفكر إنسان في الزواج؟..

- في المرة الماضية بعد ذهابك دخل علي شاب مستفهما عما كنت تفعلين هنا.

وخفق قلب حنان ترقبا:

- سألته من يكون، فقال: "إنها تخصني." فأريته العدد الأخير من المجلة.. وتنهدت حنان وهي تقف مودعة:

- كلهم يراقبونني.. كلهم لا يثقون بي.. لقد خطر لها أن ذلك الرجل هـو رفيـق فقالت له غاضبة عند المساء:

- كن على ثقة بأن سمعتك في أيد أمينة.

فنظر إليها رفيق دهشا:

- عم تتحدثين؟..

- ألست أنت الذي سأل عني رئيس التحرير؟..

ولكنها أدركت فجأة خطأها.. فرفيق ليس مجهولا من رئيس التحرير وقد قبض عنها أجرة المقال الأول.. من يكون إذن؟.. أتراه ماجد؟..

أشياء جديدة تنمو في نفسها.. رغبة جامحة لتفهم العالم حولها..

كم هي بحاجة إلى صداقة تنزهت عن شوائب الهوى لتتعلم، ولكـن التجـارب أقنعتها بندرة مطلبها.. فكرت طويلا كيف ستواجه كل الصعاب التي تعترضـها.. كيف تمارس مهنتها، كيف تحتمل جو العداء لحريتها؟.. لن يغفر أحد تلك الرغبة الطبيعية للمعرفة، لن يغفر لها أحد أن تكون منتجة، ندا للرجـل.. تبـدأ عمليـة التشذيب في البيت ثم يكملها الزوج ليصنع منها نسخة لأمها، منجبة أطفال وخادمة للبيت وتابعة للزوج.

رئيس التحرير يماطل في دفع التعويضات عن مقالاتها، ولكن المجلـة كانـت تردها بانتظام كلما صدرت.. وبد لها أن مقالات رئيس التحرير تأخذ طابعا مغايرا لما ألفته.

فقدت روحه الإخلاص.. وبدأ يتذبذب على حبل النفاق بين نوايا مستترة متخاذلة ولهجة ثورية جوفاء الرنين، فعولت أن تستدير نحو ميدان آخر لإنتاجها..

والغريب أنها باتت تلمح كثيرا جهاد في قاعـات الـدرس والمحاضـرة وفـي المكتبة.. لم يحدثها قط ولكنها لمحته يوما يتطلّع إليها بنظرات حالمة.

أوغرت الأمور. وفي يوم كانت حنان فيه في المعهد سُمع انفجار قريب وتداولت طلقات الرصاص ودوى إنذار منع التجول وتجمهـر الطـلاب حـول الأسـتاذ البريطاني، وراح يسألهم عما يفعلون في حال قيام حرب.. كانت غالبية الطلبة من اليهود، وتكلموا بما يثير الأعصاب، وتشافنوا والطلبة العرب بالنظرات وتراشقوا بالألفاظ النابية، وأحست حنان بتكهرب الجو فانسحبت.. كانت جديـدة غريبـة لا تحادث أحدا ولا تعرف بين الطلاب وجها إى وجه جهاد.

في الطرقات الخاوية إلا من الأسلاك الشائكة حول بعض القنصليات والـدوائر راحت تغذ السير ولكن الطريق العام غدا معترضا بالأسلاك، وأُسقط في يدها.. إن عليها أن تسير في شوارع لا تعرف مداخلها ومخارجها وهي مستفردة والرصاص يدوي حولها والسماء مخيلة فرأت أن خير ما تفعله أن تعود إلى المعهد. ولكنهـا خشيت أن يستمر منع التجول إلى ما بعد الغياب، وفيما هي في حيرتها إذ لمحـت جهاد مقبلا نحوها فأبرق وجهها بالارتياح ففي المحـن العامـة تـذوب الكلفـة والتناقضات الصغيرة بين الجماعة الواحدة ويؤلف بينهم الخطر المحدق، وحياهـا بابتسامة خجولة مهذبة، وقال كأنما يكمل حديثا سابقا:

- هل رأيت ما فعل الأوغاد؟.. قامت معركة بالكراسي..

- أنا خرجت منذ البداية..

- رأيتك.. شهر طالب مسدسه ولولا تدخل الأستاذ كـان مـن الممكـن أن يقـع ضحايا..

- سمعت طرفا من حديثهم.. كأنما هم أصحاب البلاد ونحن عليها معتدون..

ودواليا في السير وهما يتحادثان.. كان يُسمع في الجو طلقات نارية، وأصغت إلى جهاد منتزعة نفسها من التفكير بالموت الطائر ينعب من حين لآخر.. حدثها عـن رئيس التحرير، فقال:

- قد أترك العمل عنده في المجلة..

- لماذا؟..

- إنه لا يدفع.. مجلته في أزمة دائمة..

وضحكت حنان:

- شعرت بتبدل تام في لهجته في الآونة الأخيرة..

- إنه مقامر..

- مقامر؟..

- عندما يقامر رجل في كل ليلة وينفق المال عن سعة وليست لديه سوى مجلـة تخسر دوما، ولم يورثه والده شيئا لا يستغرب إنسان أن لهجته تتبدل.

- إن تثبيط الهزائم جريمة لا تغتفر.. ما كان هكذا.. قال بأنه يفتح جريدته للأقلام الصادقة..

- إنه لم يؤمن بحرف مما يقول.. الأقلام الصادقة وسيلة ضغط..

- يا إلهي!.. لست أحتقر إنسانا أكثر من الذي يتاجر بالكلمة..

- هيأ أموره جميعا للهرب إلى مصر حين تنشب الحرب.

- كيف عرفت؟..

- سحب رصيده من البنك وأودعه في مصر.. وليس لديه الآن ما يربطه بالبلـد سوى ربطة عنقه..

- أين ستعمل؟..

- قد أعمل في الإذاعة..

- هل يصلح إنتاجي للإذاعة؟..

- ربما ببعض التحوير.

- كان جهاد شابا صغيرا متأجج الحماسة حلو الفكاهة، مهذبا خجـولا وأحـست حنان بارتياح له.. فذهنها خلو من ذلك الحرج العاطفي الذي تحسه مع ماجد.. إنها متعة الزمالة البريئة الخالية من كل غرض..

كانت تمر بشوارع لا تعرفها وفجأة شاهدا عند منعطف محلا أصابه الـدمار..

صاح جهاد:

- إنه المصور آكوب.

كان بين الركام صورة كبيرة هشم زجاجها واحترقت أطرافها وكـان يبـدو أن أناسا قد مروا من قبل، وأخذو كل ماله قيمة وبحالة جيدة، ولمح جهاد بين الركـام طرف مظروف فسحبه.. الصور فيه سليمة كلها.. كانت صورا للحوادث الإرهابية في أنحاء البلاد..

قال جهاد وهو يتأملها:

- لعلهم أرادوا طمس التاريخ.. فلقد كان هذا المصور مولعا بجمع هذه الـصور لبيعها للصحف.

- هل ستنشرها؟..

- سأرى ماذا أفعل بها..

وأودعها جيبه، وقال:

- لن يخطر لهم أن التاريخ أصبح بالرغم مما فعلوا في جيبي.

أُجفلت لانفجار قريب فأمسك بيدها وأخذا يركضان حتى بدت لهمـا الـشوارع المألوفة، فجذبت يدها وسارا على مهل:

- من الصعب أن أعود إلى المعهد بعد اليوم.. يبدو أن الأمور ستتطور.

- وأنا لن أعود لأنني فكرت بالالتحاق " بجيش الجهاد المقدس " الذي يتشكّل.

- قد أتطوع في التمريض إذا لم تعترضني الصعوبات.

- لماذا تعترضك؟..

- لأن الصعوبات دائما تعترض الفتاة.. تـصارع العائلـة وتـصارع المجتمـع وتصارع ألسنة الناس..

- عبء الشرف ثقيل على الرجل فحمله للمرأة.. لهذا صليبكن ثقيل!.

ضحكت حنان.. إنه خفيف الظل ولا يمكن لمن يعرفه إلا أن يستلطفه.

* * *

أخذ ماجد وقد حمى رأسه بقبعة من الفلين يساعد العمال في حفـر سـاقية فـي المزرعة، ورصفها بالإسمنت.. وتوقف لحظة وهو يتخيلها جاهزة تتدفق بالمـاء, وتمثّل لحظة أطفاله يسبحون ثم انتابه الخوف أن يقع احدهم وهو بعد صـغير لا يحسن السباحة، وقال لنفسه:

- يجب أن أضع حاجز البلوكات على جانبها مهما كلّف الأمر..

كان العمل قائما على قدم وساق في المزرعة. ففـي ركـن كانـت البلوكـات المصبوبة في قوالب خشبية تجف تحت أشعة الشمس، والعمال منهمكون في إكمال بيت ريفي حسن الترتيب بناه صاحبه الأول وعجز عن إتمامه، ويرصفون الأرض بالبلاط ويركبون الأبواب والنوافذ.

وكانت أحواض الزنبق أمام البيت تفعم الجو بأريجها العطر وأغراس شجيرات البرتقال والليمون التي نقلت من المشتل وعمرها سبعة أعوام تنصب في صـفوف منتظمة إلى مدى بعيد.

وأحس ماجد بالغبطة تملأ فؤاده وهو يتخيل اللحظة التي يأتي فيها بحنـان إلـى المزرعة التي طالما حلم بها وينظر في عينيها فيـرى فيهمـا الـسعادة لعـشّهما الجميل.. يأويان إليه في الربيع والصيف وأيام العطل مبتعدين عن المنـزل فـي عزلة حبيبة مع أشجار البرتقال.

ولم تكن فرحته لتخلو من بعض القلق المبهم لما يمكن أن تتطور إليه حال البلـد ولما يمكن أن يترك هذا آثاره في حياته، إلا أن المخاوف العامة نادرا ما تمتلـك الإنسان كالمخاوف الخاصة إذ يخيل إليه أنه سيكون بمنجى منها.. مـرت علـى الناس في فلسطين ثورات كثيرة كانت تُقمع ولا ينكب فيها إلا أناس معدودون من ملاّك الأرض.. من الثوار الذين يقعون في قبضة السلطة.. أمـا عامـة النـاس فبالرغم من شظف العيش الذي يعانونه بسبب الاحتلال كانوا يعـودون إلـى مـا يشغلهم من أمور العيش والحياة وكأن ما يصيبهم قدر لا مرد له يحتملونه بذخيرة لا تنضب من الصبر العجيب.

الغلاء يستفحل والحاجيات تُفقد من السوق ولا يزال نظام البطاقات ساريا كمـا في الحرب والملاّكون يفقدون أراضيهم واحدا بعد الآخر والنحس قد أصاب كـل مشروع يقومون به، فإذا ما زرعوا الأرض بندورة رخصت وأصبحت أسـعارها كالتراب وغلا البصل وفقد من السوق وارتفعت أسعاره كأن الشاري يحصل على

فاكهة نادرة يعود بها إلى عائلته في قرطاس صـغير، وإذا مـا زرعـوا الأرض بصلا أملا في الربح في العام التالي رخص بدوره وارتفع سعر البندورة..

وهكذا كان الناس يدورون في دوامة مشاكلهم اليومية لا يجـدون وقتـا كافيـا للاحتجاج.. كانت الثورة نارا تشعل كل فرد على حدة ولكنها لم تكن لهبا يتواصل ويتأجج ويجعل الأرض جحيما للمحتل والغازي معا..

لم يكن ماجد من هؤلاء الناس الذين سحقهم النظام فلم يعرف الحرمان حتى في إضراب عام 1937 الذي دام ستة أشهر وتعطلت أثناءه الأعمال وتـضور أكثـر الناس جوعا. إذ كان منزلهم ممتلئا بالمؤن المفقودة من السوق وخزائنهم عـامرة بقطع الثياب الفاخرة التي كانت تُباع في الضائقة بأثمان بخسة.. ورصـيدهم فـي بنك باركلاس يزيد ولا ينقص. فالموظّف الثابت المورد كان يعيش فـي بحبوحـة نسبية لا يُصاب بالكوارث الاجتماعية التي كان مالك الأرض يُصاب ببلائها، فإذا ما أضيف إلى ذلك الأعمال الجانبية كالتي كان يقوم بها أبو ماجد من عمله كمحام، ومن صفقات تجارية معينة كان يشارك فيها التجار تبوأ مكانا رفيعا فـي الـسلم الاجتماعي وأثرى بسرعة ويسر.

لم يكن ماجد ليحس في بيئته وطأة الأيام العصيبة، وكان أكثر ما يـشغله ذلـك الإحساس الأليم بالفراغ العاطفي الذي يعانيه. فلما اطمأن إلـى أن أحلامـه فـي الاستقرار دانية التحقيق غمرته نشوة طاغية وهو يردد لنفسه:

- إنها بحاجة فقط إلى السعادة والظروف الحسنة للعيش.

كان عاري الجسد حتى الخصر وحبات العرق تلتمع على ظهره الملوح بالشمس عيناه تلتمعان ببريق شوق محتدم:

- غدا الجمعة سأذهب إليها.

وتملّكت وجوده رغبة عارمة أخذت تنبض في دمه وجعلـت عينيـه تتـسمران لحظة على حفرة الساقية..

طفل النهار وانصرف العمال فخلع ماجد ثياب العمل واغتسل بمـاء النبـع ثـم ارتدى ملابسه وأخذ باص القدس- يافا.. وقبل أن يصل إلى المحطة الأخيرة نزل وعرج إلى مكتب والده كعادته ليقرأ الصحف وليسأله عما جد في قضية أسعد قبل أن يعود إلى البيت. ولم يكد يبلغ أعلى الدرج حتى سمع نقاشا حادا داخل المكتب.

كان التيار الكهربائي متعطّلا وقد استنار المكتب بشمعدانين كبيرين سقط نورهما على وجه والده الذي بدا منفعلا شاحبا، وأمامه على المقعد جلس رجل غير حليق متلفع بكوفية وعقال محفوف بالظلال، كسر رهيب على وشك أن يكتشف أمـره.. وأحس ماجد فجأة بيد تعصر قلبه والرجل يصيح بلهجة متحدية حينـا مـستعطفة أخرى:

- أعد لي أرضي..

- الأرض أصبحت ملكي وقد أنفقت عليها الكثير..

- أدفع لك ما أنفقته..

- أنا لم أجبرك على بيعها. كان العقد بيننا قانونيا ليست فيه شائبة.

- قد يكون قانونيا ولكنه غير مشروع.

- ألم يكن برضى الطرفين؟..

- كنت في أزمة..

- ما ذنبي أنا إن ترجع بقولك؟..

- لم أتنازل برضاي.

- أقم دعوى إن شئت..

- لست أريد أن أقيم دعوى.. إنني ألتجئ إلى مروءتك.. إنني مغبـون.. رهنتهـا بثمن بخس وهي مورد رزقي..

- ما ذنبي أنا؟..

- أنت تعلم ما جرى.. رهنتها لك أملا أن أستردها.

- لم لم تدفع قيمة الرهن في حينه؟..

- عجزت عن الدفع.. ولكنني أدفع الآن.. فأعد إلي الأرض.. هذا ربا، هذا حرام في شرعنا..

- أنا لم أفعل شيئا غير قانوني..

- قانون الله لا يرضى بهذا.. فرضت علي الثمن فبعتها لك بأقل من قيمتها بكثير.

- كل ما حدث كان برضاك..

- كلا..

- ليس لك أن تطالب بشيء.. لقد قمت أنا بكل تعهداتي.

- كلا لم تقم بكل تعهداتك..

- دفعت لك ثمنها حتى آخر قرش..

- أخللت بشرط أساسي في البيع..

- لم أخلل بشيء..

- لست رجلا مغفلا.. أعلم لمن آلت الأرض..

وانتفض أبو ماجد عن كرسيه، وقد ارتعدت فرائصه ولكنه لم يلبث أن تمالك نفسه، وكان ماجد ينقل الطرف بين الرجلين مستوليا عليه الذهول، وبدا له أن والده محرج كمن أُخذ في جريمة. وأن نظرة الرجل فيها الجرأة والحقد مما لا يبدو إلا في عيني وحش جريح:

- الأرض ملكي وإبني هو الذي يعمل فيها..

- الأرض ملك " بنيامين فيشر "

- كذب..

- كنت في دائرة البلدية.

- أنت مخطئ، ربما كانت الأرض المجاورة..

- بل هي نفسها.. اشتريتها بثمن بخس وبعتها له بثلاثة أضعافها أيها السمسار..

- تهيننني؟..

- سمسار وخائن..

- سأستدعي لك الشرطة..

- أما كان بوسعي أن أفعل ذلك؟.. أن أبيعها له مباشرة؟.. تغتني بمصائبنا أيها السافل، تسمن بجثثنا كالغربان أيه الحقير؟.. ليس لك وطن؟.. ليس لك شرف؟.. ليس لك دين؟..

- أخرج من مكتبي أيها المحتال النصاب.

- سأرسل بخبرك إلى القيادة وسيضعون اسمك في القائمة السوداء.. لن تهنأ بما حققته من ربح.. سأجعلك تبصقه دما.. ولا تظن الغنيمة سهلة لينة..

- أخرج أيها المجرم.

- سيأتي اليوم الذي ستنال فيه عقابك.. إن أمهلوك فلن أهملك.. بيدي أقتلك..

وخرج الرجل مزمجرا، وأحس ماجد كأن مطرقة قد انقضت على رأسه وأفقدته الوعي، فنظر إلى أبيه يستعطفه بكلمة يبرئ بها نفسه. ولكن الوالد كان صامتا مطرقا ثم لم يلبث أن رفع رأسه، وقال:

- أرأيت إلى هذا التهويش؟.. إنه من عمل المفتي.. إنهم يحاربونني لأنني أعقل منهم ولا أنجرف مع غوغائيتهم.. ماذا جروا على البلد سوى المصائب؟.. لقد

التحقوا بالنازيين وساندوهم في الحرب.. وهم اليوم يتربعون في مصر ويتاجرون بالسلاح في السوق السوداء.. ماذا تنتظر ممن كان مثلهم الأعلى النازيون؟.. هـل لو انتصروا كانوا يعاملونهم معاملة الأنداد؟.. إن استعمارهم لو نجح أكثر شراسة من كل ما عرفناه.. أما نحن فبوقوفنا إلى جانب الحلفاء استطعنا أن نأخـذ مـنهم وعدا بإنهاء الانتداب، فمن منا الذي يعمل لصالح البلد؟..

سأل ماجد بوجوم وقد ضايقه الزوغان عن الموضوع:

- ما قصة الأرض؟..

قال بلهجة نصوح:

- ماجد، يجب أن تكون رجلا واقعيا.. التقسيم واقع لا محالـة، ط هيئـة الأمـم المتّحدة " تريده.. رؤساء العرب يريدونه.. أنا لا أنطح رأسي بالصخور كـبعض الحمقى.. وهذه الأرض تقع في المنطقة التي ستؤول للصهيونيين. سـيأتي اليـوم الذي نضطر فيه لتسليمها لهم لقاء ثمن بخس أو دون مقابل أفلا أكون أحمق إن لم أنتهز هذه الفرصة التي تغبش فيها الأمور فأبيعها بثمن غال؟..

كان وجه ماجد شاحبا كأنه موشك على إغماء، وأطرافه باردة وذهنه أشلّ وقـد صعقته المفاجأة ولج به الإحساس بالمهانة.. وأردف الوالد وهو يسترق النظر إليه:

- لم أكن أريد أن أوضح الأمر لك لعلمي بأنك شديد الحـساسية ملتـزم بـآراء رفاقك.. تعطي أذنيك لهم أكثر مما تعطيها لي.

وتمالك ماجد نفسه وقال باسر الوجه:

- لقد غررت بي.

- ما غررت بك.. إن هي إلا صفقة رابحة لنا خاسرة للعدو، وغدا سأشتري لـك أرضا أخرى أخصب وأرحب في المنطقة المحيطة بالقدس.

- ما حاجتي للأرض! كنت باسقا بين أترابي فصوحت بي.. سيسمني العار حتى أموت ويلحق أبنائي.. سيشيرون إلينا ويقولون :" عائلة سماسرة، بـاعوا الأرض للصهاينة، واغتنوا بخراب مواطنيهم.." هل كنت أريد أن أكون مالكا وهميا لأرض لم تكن لي، أبنيها وأزرعها لغيري؟.. أتجعل مني أداة لصفقتك الرابحـة تعبـث بأحلامي وأفراحي وأماني؟.. أهذا جزائي لأنني وثقت بك؟.. ما قيمـة الإنـسان يثرى دون شرف، تلاحقه اللعنات ونظرات الاحتقار أنّى يسير؟..

- لم افعل ما يستحق كلامك الجارح أنت الذي أحبه أكثر من نفسي، هل الـشرف أن أسلّم الأرض دون مقابل يوم ينفذ قرار التقسيم؟..

- ولم تسلّم الأرض؟.. أهي أرض للأمم المتحدة أم أرض الرؤساء العرب؟.. لـم تترقب الهزيمة قبل أن نخوض معركة؟.. من الذي يضطرنا لننفذ القرار الغاشم؟..

- لن يكون الرأي العالمي معنا إن رفضنا قرار هيئة الأمم.

- سنرفضه.. كل فرد من الشعب يرفض قرار هيئة مجحفة يسيطر عليها نصابون عالميون.

- لا فائدة من الرفض إن لم نكن واثقين من قدرتنا على تحقيق إرادتنـا.. ممـن نشتري السلاح؟.. ممن نطلب العون؟..

- كل الأقطار العربية تساعدنا لو نشبت الثورة.

- إنني أعرف منك بعمق التفسخ في حكوماتها.

- هذا لا يبرر تفسخنا نحن.. نحن أصحاب القضية..

- سيأتي يوم تندمون فيه على عدم قبول قرار التقسيم فلو هُزمنا فقدنا هذا الحق.

- لن نندم أبدا..

- سنرى.. أنتم أغرار، متهورون لا تعرفون ما تريدونه.

- نعرف طريقنا جيدا، أما طريقكم فلقد سارت فيه من قبل الأمـم التـي بـادت، ومُحي اسمها من التاريخ.

وهب ماجد واقفا يريد الخروج فتأمله والده والكآبة تغمر قلبه وأحس أنـه فقـده ولن يقوى على استعادته فهتف بصوت مبحوح متشبثا بآخر أمل لديه في إقناعه:

- ترو يا ماجد، لقد حُكم على أسعد بالإعدام، ولم أقو على إنقاذه ولن أستطيع ولو كنتَ أنت في مكانه وسينفّذ الحكم فيه غدا.

وهز ماجد رأسه دون أن يجيب.

* * *

دخل أبو ماجد السجن إلى حيث كان أسعد في زنزانة انفرادية، وكان الشاب فـي لباسه الأحمر قد أعد نفسه لاستقبال منيته والتقت عيناهما بصمت حزين. فبالرغم أن أبا ماجد كان محامي دولة لهؤلاء الذين يعجزون عن توكيل محام عنهم، إلاّ أنه دافع عنه بكل ما أوتي من قوة. وكان صادق الألم للشاب المندفع، حاقدا على من يعتقد بأنهم يغررون به. وبالرغم من قدراته المنطقية الفذة لم يجد رابطة بين عقد أبرمه لأنه صفقة رابحة، وبين حبل المشنقة الذي سيشد بعد ساعة على عنق شاب يرى بعينيه الفتيتين النفاذتين مأساة المستقبل.. تطلّع إليه أسعد يستشف أملا، فمـا كان ليصدق أن كل شيء سينتهي بكل هذه البساطة: "تتوقف الحياة فيه ويُلقى فـي جوف الثرى.." أطرق أبو ماجد، فما كانت عيناه تحملان للفتى إلا خيبة الأمـل، وكان حزنه طاغيا يمزق نياط قلبه.. إنه حزنه على إبنه إذ ينجرف في ذلك التيار ويلقى نفس المصير. قال وقد ارتج صوته:

- أليدك ما توصيني به يا بني؟..

- لا شيء.

- ألا تحب أن أحقق لك أية رغبة؟..

- رغبتي أن أعيش.

- تعلم يا بني أن هذه الرغبة عسيرة.

- هل أخبرت أمي؟..

- كلا..

- كانت تأمل وستفقدها الصدمة صوابها.. إن الألم لن يطول بي، أليس كذلك؟..

- نعم، لن يطول.

- لا يحس الإنسان شيئا بعد الموت أليس كذلك؟..

- نعم لا يحس شيئا..

- ربما عفوا عنّي في اللحظة الأخيرة.. ألا يحدث هذا؟.. ألـم تـسمع بقـصص كهذه؟..

- نعم سمعت..

- لماذا تخدعني؟.. لماذا تشعل بي رغبة مستحيلة؟..

وصمت أبو ماجد وقد غص بلعومه، وأردف أسعد:

- أيكون منظري بشعا؟.. أتخشاني أمي؟..

ووضع أبو ماجد كلتا يديه على كتف الشاب وهزه:

- أسعد لا يليق بك هذا.

- لا يزعجني في هذه اللحظة سوى حزنها.. ماذا يعزي امرأة فقدت زوجها وهي في صباها وتفقد ابنها في كهولتها؟..

- فكّر في نفسك.. هل أنت بحاجة لشيء؟..

- تعيش في بيت أخ معسر معيل.. لماذا تتفاوت حظوظ النساء؟..

- دعني أحقق لك رغبة ما قبل أن يمر الوقت..

- ماذا يقول علي الناس؟..

- لم أسمع ما يقوله الناس..

- ألستُ بطلا؟.. ألا أشعل بدمي حياة أمتي؟..

- نعم، نعم..

- لماذا لإذن اشعر بالحزن؟.. لم يذهب دم والدي هدرا.. أنا مثله ثائر.. يجب أن أفرح.. قل لأمي أن أسعد كان فرحا حين واجه ربه.. لا تنس أن تقول لها ذلـك فلعلّه يُبهج قلبها..

- حتى الآن لم أعرف رغبتك الأخيرة..

- لا أريد أن أموت خاوي المعدة.. أطلب كبابا وسجائر..

تتجلّد قلوب من يعيشون مع هذه المآسي كل يوم، ولكن أبا ماجد كان يعيش فـي تلك اللحظة خوفه على ابنه الوحيد الذي يعبده، ولم يملك أن تترقرق عيناه بالـدمع فخرج بعد أن أوصى الحارس بما يبغي.

كانت الدموع تغشى عينيه فلا يرى الطريق أمامه، وتعثّر بشرطي وهو يمر من ساحة السجن حيث عُلّقت مشنقة أوتوماتيكية. واعترته رعشة وهو يـذكر وجـه ماجد المنطفئ البريق المتلفّع باليأس والمرارة. لم يكن ليخطـر ببالـه أن الأمـر سيكشف على هذه الصورة. وكان واثقا من اكتتامه فإما أن ينفّذ قرار التقسيم فيسلم

ماجد الأرض مرغما كغيره وإما أن تبقى الأمور معلّقة فيستفيد إبنه منهـا مـادام صاحبها الحقيقي لا يجرؤ على الإقامة فيها، وهي محاطة بسور مـن الأراضـي العربية. ولم يكد يبلغ البوابة حتى سمع صوتا نسائيا يناديه:

- أبو ماجد، أبو ماجد.

ورفع رأسه فشاهد أم أسعد بملاءتها السوداء المزمومة ومنديلها الأبيض الـذي يغطي شعرها تحت الملاءة، ولا يبين سوى وجهها المتغضن بـالرغم أنهـا لـم تتجاوز الأربعين.. كانت شاحبة قلقة تحمل سلّة بيض وتحاول جاهـدة أن تقنـع الحارس بإدخالها فلا يلين:

- أبو ماجد، أقبل يديك، بحق محمد دعه يفرج لي الباب فرج الله كربتك.

وأجابها الحارس بغير مبالاة:

- لم يحن بعد وقت الزيارة، جئت قبل الأوان.

وأسقط في يد أبي ماجد.. كيف يخبرها بالأمر؟.. أمن الرحمة أن يطعنها بالخبر الفاجع ويقف قربها يواسيها في محنتها أم يتركها للحرس ويتجنّب ذلـك المـشهد الذي يقطع نياط القلب؟.. أمن الرحمة أن يتركها تشاهد إبنها قبل أن تفقده إلى الأبد أم يوفّر عليها مزيدا من عذاب لا طائل فيه؟..

كانت أوامر رئاسة السجن أن يُعدم الشاب قبل طلوع النهار ولكن عطلا فنيا أخّر الموعد.. وأحس أبو ماجد أنه لا يمتلك أعصابه كما ينبغي.. أخذ الدمع المترقرق

في عينيه يتكاثر فأشاح بوجهه ثم أخرج منديله وجعل يتساءل ويمـسح عينيـه.. ولكن أم أسعد وهي التي جعلها الترقب والخوف شديدة الحساسية شعرت أن أمرا جللا قد حدث، وانتابتها رعشة وهتفت والرعب يطل من مقلتيها:

- أسعد ابني، ماذا جرى له؟..

- تشجعي يا أم أسعد.

وسقطت السلّة من يدها وكُسر البيض وتمرغ في التراب وتلجلج لسانها المعقود بقول غير مفهوم:

- ماذا؟.. كيف؟.. لا أصدق، أسعد إبني مات!..

وهمس أبو ماجد شيئا في أذن الحارس ففتح الباب، وأمسك بيد المـرأة الذاهلـة الزائغة العينين وسار بها..

- لم يمت.. ولكن الحكم سينفذ اليوم..

- ولكنّه صغير.. أقسم بالله أنه لم يبلغ بعد سن الرشد، كبرت عمره في "الكوشان" عامين كي لا أدفع غرامة.. ألم تقل هذا للقاضي؟..

- كنت تعلمين أن الحكم غير قابل للاستئناف يا أم أسعد.

- لن يعدموه.. سأرتمي على قدمي القاضي وأحلف له أنه صغير..

- لن يفيدك هذا يا أم أسعد..

- لن يموت.. جارتي فنجانها لا يخطئ.. قالت أن أسعد لن يموت.. أيـن منـزل القاضي؟..

- سأذهب إلى منزله أقبل يدي زوجته.. إنها تعرف ما يعنيه فقد الولد، وستـشفق علي، ولا بد أن كلمتها مسموعة وسيصدر القاضي أمرا بالعفو عنه.. نعم سيعفون عنه.. حلمت بهذا البارحة.. وأحلامي لا تخطئ.

كانت الوجبة المجانية الكريمة قد أُحضرت لتوها حين دخلت أم أسـعد، وهـب أسعد واقفا، وقد حشا فمه بلقمة كبيرة. أخذ صدرها يعلو ويهبط كأنها تلهث أنفاسها الأخيرة وعانقته، تشمه وتتحسسه بيد مرتجفة.. كانت تريـد أن تحـتفظ بـذكرى رائحته.. ومرغت وجهها في صدره وأسكرها عرقه ودخانه ولم تجد ما تقوله لـه في هذه اللحظة الرهيبة سوى أن تتمتم خلال دمعها:

- جئتك بسلة بيض يا حبيبي، ولكن الرعب أسقطها من يدي فكُسر ما فيها.

- جاؤوني بوجبة أشهى.. كلي معي..

وأجهشت أم أسعد بالبكاء:

- يا حظي التعيس!.. يا إبني ماذا فعلت مع ربي؟..

- أنا لست تعيسا.

كان أسعد متألقا قي ثوبه الأرجواني يأكل بنهم غير طبيعي، مسكنا قلقه وخوفه، مبعدا عن خياله شبح الساعة الرهيبة المقبلة.. ودعا أمه مرة أخرى لتشاركه فـي الطعام:

- ليتني آكل شوك الصبار، ألي شهية؟ ليتك تكفنني بيديك وتدفن عظامي فـأكون أما سعيدة.

- تشددي يا أمي لا تضعفيني.

- حلمت البارحة أنني في عرس لم أدر لمن يكون.. كانت عروس تجلس والناس من حولها يرقصون، وكنت أشعر بأن قلبي حزين. سـألت أحـدهم لمـن هـذا العرس؟.. فقال: ألم تسمعي بأنه صدر عفو عن أسـعد الـصياد؟.. إننـا نحتفـل بعرسه..

غضبت وقلت: أتحتفلون بعرس إبني وأنا لا أدري؟.. أنـا التـي أختـار لـه العروس.. إنني أعلم أنه يحب ابنة خاله ولن أختار له غيرها.. وسمعت ضـحكة تصدر من خلف نقاب العروس، وكشفت وجهها فشعرت بالبهجة.. كانت هي ابنة خالك " ثريا ".. ورأيتك تدخل محمولا على أعناق رفاقك وهم يغنّون..

وضحك أسعد، وقال وهو يشعل لفافته ويتلذذ بطعمها الفاخر:

- هذا معناه أن ساعتي الأخيرة قد دنت.. لماذا كنت أُحمل على الأعناق؟..

- خيب الله فألك.. ليس هكذا تؤول الأحلام! ليس هكذا!..

ولم تتمالك نفسها فأخذت بالبكاء.

- تشددي يا أمي ولا تضعفيني.

- هل إيمانك ضعيف بالله؟.. أليس قادرا على كل شيء؟..

- يجب أن أمتلك نفسي في ساعتي الأخيرة وأتصرف بما هو جدير بثائر..

وأكبت أم أسعد على الأرض وقد هدها الحزن ثم رفعت رأسها إلى أعلى:

- رب، لا تسمح بهذا أبدا..

وواساها أسعد بلهجة حنون.

- أمي، أهناك عرس أجمل من أن يموت إنسان في سبيل بلده؟..

- أتعزيني يا بني، " عام كدر ولا لحظة تخت الحجر.." أسعد يا حبيبي ألان يطول بك العمر لأرى أبناءك وأحفادك!..

- هل كرهت أنا الحياة؟.. كنت أتمنى لو لم يكن هناك من يعتدي ومن يخون ولم أكن بثائر..

- ليتهم يشفقون عليك ويحكمونك مؤبدا، إذن لكنت أما سعيدة.

- أمي، أتعرف ثريا بأنني كنت أحبها؟..

- أنت أعلم يا بني..

- إنها لم تكن تبادلني الحب لأنني فقير ولأن أمي تغسل في البيوت.

- لا أعرف ضميرها يا بني.. أنا لم أبح لأحد بهذا.

- لا تخبريها.. يكفي ما أزرع بعدي من شقاء.

- ليس شقاء أن أفنى يدي غسلا في البيوت طوال حياتي ما دمـت أرى عينيـك تلمعان.

ولكن أذرعا مأجورة قوية لم تلبث أن شدت أسعد من قرب أمه لتطفئ البريق في عينيه.

ارتعدت اللفافة في يديه وسقطت على الأرض، فسحقها الحارس بقدمـه وسـيق أسعد دون أن يبدي أية مقاومة.. ودوى صوت أم أسعد في أرجاء السجن مرعـدا يردده الصدى:

- أسعد، ابني، حبيبي.. أطفأ الله عيني كل من يمس إبني بـأذى، وقطـع نـسله، وسحق ذريته، وأهان شيخوخته، وجعله كالكلب الجرب يستعطي في الطرقـات، ولا يجد من يسد جوعه بكسرة خبز..

كانت تعول كمن فقد الصواب ولم يستطع أبو ماجد أن يقنعها بالـذهاب علـى البيت إلا بشق النفس. فسألت بلهجة قلنطة:

- متى سيسلمون جثته؟..

- أليس الأفضل أن يدفنوه على حسابهم؟..

- لا والله!.. أيكون مجهول القبر؟.. كل أهل الحي سيـساعدونني علـى دفنـه.. سأغسله بيدي وأعطّره بالتمر حنا وأقرأ له القرآن.. سيسير وراءه القاصي والداني

يشيعونه إلى مثواه الأخير، من عرفه ومن لم يشاهده قط.. أليس ثـائرا؟.. ألـيس شهيدا؟.. ألا يقابل الله مطهرا من الذنوب كطفل؟..

عاد أبو ماجد إلى منزله مضعضع الحواس وحث زوجته بما كان وطلب منهـا أن تذهب لتعزية أم أسعد فرفعت يديها إلى السماء متضرعة:

- رب، كن في عونها!.. رب، ألهمها الصبر!.. رب، لا تفجعني بعزيز علـي!.. رب، إن قّدرت يوما مصيرا حزينا لإبني فأمتني قبله.

وانتهرها أبو ماجد ضيق الصدر:

- لماذا تنعبين هكذا؟.. أقلوبنا تحتمل المزيد؟.. إنّك تفقديني أعصابي.

- ونظرت إلى أبي ماجد بقلق:

- كان وجهه شاحبا يا أبا ماجد كأنما هو مصاب باليرقان، ولم يتناول عند الفطور إلا النزر اليسير، وبدا لي أنه يسير متثاقلا كمن يحمل على ظهره حملا يكده.. هل أخبرته أن أسعد سيعدم اليوم؟..

- فعلت.

- أخشى عليه الصدمة.

- لعلّه يرعوي.

- سألته ما به فلم يجبني، بل أطرق ثم رفع عينيه إلى السقف في نظرة ساهمة.

- يجب أن يدرك أن الأمر ليس لعبا، ويسمع نصيحتي في الابتعاد عن أصحابه.

- لبس اليوم على غير عادته قميصه جعكا ولم يربط عقدة. ولما جئتـه بقمـيص مكوي قال لي ليس ضروريا، وأبديت استغرابي فأردف ببسمة "الدنيا كلها جعكة".

وانتفض أبو ماجد عن كرسيه قلقا وقد أنشب في ذهنه خـاطر مـزعج، وفـتح الدرج تحت المذياع حيث احتجز المسدس عن ماجد فلم يجده.. وكانت أم ماجـد تلاحقه بنظرات قلقة جزعة، يسيطر عليها إحساس مبهم بـالخوف ينقـبض لـه صدرها.. نقّب أبو ماجد في الدرج، وقال:

- أخذ المسدس!..

- ولكن المفتاح معي.

- فتحه على كل حال.

- هل من خطر عليه؟..

ولم يرد أبو ماجد بشيء بل تناول سماعة الهاتف وسأل عن ابنه فـي دائرتـه فأُجيب بأنه لم يحضر، ولم يستأذن في الغياب، وتطورت هواجسه.. أين يمكن أن يكون؟..

- لعله ذهب إلى بيت أبي غالب.

- لا يذهب إلى هناك بثياب جعكة.

- لعلّه ذهب إلى أم أسعد يعزيها.. أو ليجتمع برفاقه فيذهبوا معا.

- يجوز، ولكن لا مبرر أن يذهب ماجد للتعزية بثياب جعكة. أنت لا تـدري مـا يخطر له..

- اذهبي إلى هناك فلعلك ترينه.

- لا يمكن إلاّ أن يذهب للتعزية فأسعد أعز أصدقائه.

- سأرسل إكليلا من الزهر باسمي واسم ماجد، وكنت أذهب بدوري لولا أنني لا أحب أن ألتقي بمن لا يسرني مرآهم.

* * *

تقاطر الرجال والنساء إلى منزل خال أسعد، وماد حشد متجمهر من الصغار حول المعبر، وهبت أصوات عويل مبحوحة من الداخل، وانسلّت أم ماجد تتعثّـر إلـى حيث جلست أم أسعد في غرفة جانبية قرب المدخل، وضمتها وبكت دون ان تقوى على ترديد الكلمات التي ألف الناس أن يقولوها في العزاء.. وجلست قربها في جو نسائي أبكم، متشح بالملاءات السوداء والأغطية البيـضاء، وانفجـرت أم أسـعد بالبكاء بعد أن كانت قد هدأت قليلا وجرفتها موجة طاغية من اللوعة وهي تململ ذات اليمين والشمال..

- زينة الشباب راح يا أم ماجد.. رفاقه وين هم ما ودعوه؟.. لو أن عـين ماجـد رأته يتمرجح على المشنقة.

ثم أخذت تردد قصيدة شعبية خلفها مناضل فلسطيني مجهول:

ياليل خلي الأسير تايكمل نواحو

راح يفيق الفجر ويرفرف جناحو

تا يتمرجح المشنوق في هبة رياحو

شمل الحبايب ضاع وتكسروا قداحوا

وسرت رعشة في أوصال أم ماجد، واعتصرها الحزن والخوف وأخـذ دمعهـا ينهمر في صمت.. وصرخت أم أسعد مولولة وهي تضرب صدرها بيـديها وقـد انفلتت خصلة من شعرها الفاحم من تحت منديلها الأبيض، فأسرعت إليها النـسوة يؤنبنها ويذكرنها بأن ما تفعله من المحرمات. وأنها تعذب روح إبنها التي تحـس وترى كل شيء.

فسكنت وأخذتها غيبوبة وترنحت على مسند المقعد باستسلام كليل، ولكنهـا لـم تلبث أن تذكرت فداحة مصيبتها فعاودها شعور بالاختنـاق لا يفرجـه إلا الـنغم الحزين الذي أخذت ترددد:

يا ليل وقّف تاقضي كل حسراتي.

يمكن نسيت وين أنا

ونسيت آهاتي

يا حيف!.. كيف انقضت بيديك ساعاتي؟..

وفي صحن الدار كان يسمع القرآن الكريم.. وأصاخت أم ماجد الـسمع.. كـان واضحا صوت انسكاب الماء في الغرفة المجاورة التي يفصلها عن غرفـة مـأتم النساء باب، وتلاه الحركة غير العادية للقريبات في غدوهن ورواحهن من ممـر المطبخ إلى الباب يحملن تجهيزات الغسل. صوت يتلو بالدعاء.. كان صوتا قاسي النبرة لا خشوع فيه، رتيبا متقطعا يرافقه طشّ الماء.

رب يرتفع إلى ملكوتك حبيبك اسعد فاغفر له وأنعم عليه بالدار الباقية، رب متّع عينيه بالجنان في أعلى مكان، حيث أبو بكر وعمر وعثمـان وعلـي، وارزقـه قصرا منيفا وحوريات لم يشهد مثلهن إنسان.

رب إسقه من الكوثر والراح الدائمة بكؤوس من العسجد وأباريق من الزبرجـد، رب أنشقه ريح المسك من عبير الفردوس وأسمعه تراتيل الملائكة وصوت بـلال الحبشي. رب نج رقبته من حبال المسد وأعطه كتابه بيمينه، ولا تعطه بيـساره، وثبت قدميه على الصراط المستقيم وأسبغ عليه نعمتك يا الله يا كريم.

ولم تلبث أن دخلت الغرفة منيرة زوجة أخي أم أسعد، وهي امرأة نحيلة خفيفـة الحركة حاملة قارورة ماء وشرعت تتحدث وأم أسعد بصوت هاجس:

- أرسلها إليك الحاج فاضل جارنا: إنها من بئر زمزم لترشّيها عليـه قبـل نثـر الأزهار والحناء.

وتطلّعت إليها أم أسعد كأنها لا تفهم ما يُقال:

- ما حاجتي إليها؟..

- إن كل قطرة منها تلمس جسده تقيه عذاب اللهب.

وتناولت أم أسعد الزجاجة وتمتمت شاردة اللب:

- أهناك لهب أفظع مما كان فيه؟.. سيدخل مملكة السماء.. لقد استحق إبنـي أن يغفر له كل ذنب بغير ماء زمزم.

- وهذا لا يمنع أن نزيد راحته الأبدية.

وأحست أم أسعد أن قلبها ينفطر.. كان ألمها ينحسر قليلا ثم ينفجر كآلام الطلق:

- يا أسفي على شبابه، على شعره الأحمر ووجهه الخمري، كانوا يقولون لي وأنا أسير به صغيرا " من أين لك يا أم أسعد مثل هذا الإبن المتلألـئ وأنـت فاحمـة السواد؟.." العيون حسدتني. لا أصدق لا أصدق.. يا حيف عليك يا شهم يا شجاع:

لا تظن دمعي خوف، دمعي على وطاني

وعاكمشة زغاليل بالبيت جوعاني

مين راح يطعمها بعدي؟..

وإخواني تنين قبلي عالمشنقة راحوا؟..

ما ترك غير أمه.. لا يريد أن يزرع بعده شقاء.. يا دمعة لا تفارقي عينـي، يـا حزن لا تنطفي من قلبي.. حرقتني يا أسعد يا حبيبي.

واختنق صوتها بالبكاء، وقالت امرأة بدينة ضيقة العينين:

- أكلما هدأت تشعلون نارها؟.

وعلّقت أخرى:

- دعوها تبكي فيكون أيسر عليها.

ونصحت غيرها:

- لو أنها تستلقي وتنام قليلا يخف عذابها.

وكانت أم أسعد تبدو وقد هد حيلها، وبان عليها عجز يثير الإشفاق، وهي تقـف ثم ترتمي على مقعدها، ثم تنهض كرة أخرى متلمسة طريقها إلى بـاب الغرفـة المجاورة وهي جزعة أن تنزع من خيالها صور طفولته وغمازته التي تلح علـى خيالها في تلك اللحظة. وكانت النسوة بين مشجعات لها على الـدخول ومثبطـات لعزمها.. ودفعت لها إحداهن الباب، فلم يكد يفرج قليلا، حتى سد عليهـا رجـل طويل، وقال:

- لم ننته بعد يا امرأة، اخرجي إنه عار.

- أنا أمه، أريد أن أرشّه بماء زمزم.

- أعطني القارورة.

- أريد أن أغسله بيدي.

- حرام.

- حرام علي أنا التي أنجبته وأرضعته؟..

ودفعت الباب ولمحت من فرجة صغيرة جثمان ابنها مسجى على الطاولة وأحست بقوة مجهولة تلطمها على رأسها فترنحت وهي تمسك بعضادة الباب.. بدا لها رائعا في عريه، بليلا ينسكب عليه نور الشمس، فطار صوابها وجحظت عيناها.. كانت تريد أن تتأمل الأعجوبة التي انطلقت منها.. لماذا يمنعونها؟.. أليست أما؟.. أليس لها الحق؟..

- أريد أن أرى العريس يا ناس.. هذا يوم عرسه.

وأفرج الرجل الباب قليلا وانتزع من أم أسعد القارورة وأغلق الباب دونها فشحب وجهها وأخذت ترتجف زائغة العينين:

- الغرباء أقرب إليك يا أسعد اليوم مني.

وعادت إلى مقعدها مهدودة القوى، وأخذت تنتحب بغير دموع وتلطم صدرها بيد واهنة، وتهز رأسها يمنة ويسرة.

فوضعت أم ماجد ذراعها حول كتفها تسندها. وقالت امرأة عجوز نفرت خصلة شائبة من شعرها تحت الغطاء زاجرة إياها:

- إصبري.. لا أحد غيرك كابد الحزن؟.. ليس من إنسان لم يُفجع في حياته، ولم يفقد العديد من أحبائه.. استرد الله أمانته وكلنا على الطريق.

- الموت حق علينا يا أم أسعد.

- لا يختار الله إلا أحبابه.

- إفرحي، غفر الله ذنوبه.. العثار علينا نحن الغارقين في خطايانا يوم الحساب.

- إنه حي يرزق يا أم أسعد ولو كنا لا نراه.

- إنه سعيد وروحه تعجب من حزننا عليه.

وكان يبدو أن أم أسعد ذاهلة عن تعازيهن وهي تجتر نهنهاتها، وارتفع صـوت في صحن الدار:" نصر الله العروبة والإسلام." ورددته عشرات الأصوات الخشنة، في ترجيع حزين متحد أفعم الجو بالخشوع، وأردف الـصوت:" للـشهداء أعلـى عليين، الله أكبر الفاتحة."

وسرت همهمة في أرجاء المنزل والشفاه تتمتم الفاتحة، ولم يلبث أن خرج شيخ أعمى يتوكأ بيد على عصا، وبالأخرى يحضن ذراع شاب طويل القامـة مـتعمم وهو يعبر حشد النساء:

- لقد جهز.. يمكن لمن يشاء السلام عليه.

وبرز رأس منيرة من الممر، وهي تقول:

- ابق أيها الشيخ، لم تأخذ أجرتك.

- يكافئني الله، لا أجرة لي من شهيد.

- ليجزيك الله الخير، ابق للطعام.

- سأفعل.

وخرج الشيخ والشاب إلى صحن الدار وانهمكت منيرة وبعض النسوة في تجفيف أرض الغرفة الداخلية قبل أن تفتح بابها المتصل بصحن الدار ونـادت أم أسـعد لوداع ابنها، فجفل قلبها وطرق بعنف واستيقظت أحزانها من جديد وداهمتها كآبة طاحنة، وأخذت ركبتاها ترتجفان وتهنان عن النهـوض بهـا فخفّـت أم ماجـد لمساندتها.

- هد حيلي يا أم ماجد، لا فجعك الله بحبيب.

- ليؤنس الله وحشتك دنيا وآخرة.

كان متلفعا بكفن أزرق، لا يبين سوى وجهه الجميـل الـذي عـلاه الـشحوب المشوب بالزرقة، وكانت عيناه نصف مغمضتين لم تزهدا بعد في الحياة. ومـرت أم أسعد بأناملها عليهما تغلقهما، ولكنهما عادتا إلى ما كانتا عليه. وانحسر الغطاء عن رأسه فبانت خصل شعره الأرجوانية الناعمة، وأخذت تمـرر بيـديها عليهـا وانحنت وقبلتها، وبدا لها الأمر مستحيلا قاسيا بالغ القسوة وحشيا بالغ الوحسـشية فهتفت بيأس:

- أعيدوه للحياة يا ظالمين، إنه لم يبلغ سن الرشد!.

وخفت بعض النسوة اللواتي تشجعن ولحقن بها ليشاهدن ما يفعل الموت بـشباب غض، وليهمسن في أذن الشهيد برغباتهن الخاصة لتحملها روحه إلـى الـسماء، فيستجيب لها الله. وليبعدن أم أسعد عن إبنها خوف أن يصيبها الحزن بمـس فـي

عقلها.. ولكن أم أسعد لم تكن لتريد أن تترك مكانها بجواره.. ولا تريد أن تنقضي تلك النظرات الأخيرة التي ليس لها من بعدها:

- أتركنني أتملى منه بحق محمد..

- ولكنهن أخرجنها بالقوة فعادت إلى مكانها يائسة تنشد أشعارا في فراق الأحبة قد حفظتها منذ فارقت زوجها وإن كانت لا تتلاءم بمعناها والظرف الحاضر:

وبكرة مرتي كيف راح تقضي نهارها

ويلها علي أو ويلها على صغارها!..

يا ريتني خليت في ايدها سوارها..

يوم الدعتني الحرب تاشتري سلاحها!..

أنشدت أبياتا كثيرة وهي تراوح رأسها يمنة ويسرة تتنـاغى بهـا كالأهـازيج، وتلتقطها أوزاعا من بحور عدة، لتدامجها في نغمة منتحبة.. كانت بحاجـة فـي حزنها إلى تعبير، وأحست أن النغم يخدر حزنها الثائر. فلجت فيه بحالة أقرب إلى الذهول منها إلى الوعي التام، وأخذت النسوة يتهامسن:

- ليحم الله عقلها، إن هذه المصيبة زعزعت إدراكها.

- اللهم عافينا وأبعد عنا الكدر.

- يا حسرتي ليس لديها سواه.

- اللوعة لوعة ولو كان للأم عشرة.

- لا لوع الله أما على ابنها!.

وكانت أم ماجد غارقة في كآبة بكماء إذ طرق سمعها لجب في الخـارج، ولـم يلبث أن ظهر عند المدخل نفر من الشباب يستأذنون في الدخول على النـساء، إذ احتشد صحن الدار بالرجال. وبات المرور عسيرا فأرخت النسوة النقـاب علـى وجوههن، وسمحن لهم. وشاهدت أم ماجد من وراء نقابها وقلبها يطـرق ماجـد بينهم. وكان قد ارتدى سترة فوق قميصه ولكن شـعره كـان مـشعثا. فتنفـست الصعداء وأشرق قلبها وتفتّح لمرآه، وفارقها كابوس القلق المقيت الذي سد عليهـا أنفاسها ذلك اليوم.

دخل رفاق أسعد يحملون علما وأكاليل زهر، ووقفوا برهة يعزون أم أسعد فنكأ ذلك الموقف جراحها، وانتابتها نوبة من البكاء وهي تتمسك بثياب كل واحد مـنهم تشمها وتقبلها:

- قم يا أسعد وافتح عينيك، جاء رفاقك، سلّم عليهم. لا بأس أنك لم ترتد ثيابك.

ونهنهها البكاء حتى كاد يُغمى عليها، فأحضرت لها منيرة كوب ماء معطر بماء الزهر فرشفت منه قليلا ومـلأت كفهـا ومـسحت وجههـا المحـتقن وعينيهـا المضرجتين. وتقدم رفاق أسعد منه وكانوا ستة بينهم ماجد ورفيق وطارق الـذي حضر لتوه من القدس وكان هناك عارف وشابان آخران من الجوار.

قبلوا جبينه ثم لفّوه بالعلم ووضعوا الأكاليل على جثمانه وفوق راسه.. وكان قد فتح الباب المتصل بصحن الدار فوقف طارق يقرأ كلمته التأبينيـة باسـم رفـاق الشهيد بينما أصخت آذان الرجال في صحن الدار إلى ما يقول، وكانـت الكلمـة مظاهرة لشحن النفوس بالحقد الكبير على الإنكليز والصهاينة والسماسرة.

تحدث عن المستعمر المحنّك اللئيم الذي ينفذ خطة جهنمية في اقتلاع شعب مـن جذوره وأرضه ليزرع فيها شعبا بلا جذور ولا وطن، وعلى غزاة يستبيحون ديار العرب لقاء ديونهم للإنكليز، وعلى سماسرة خونـة يجعلـون المـستحيل ممكنـا بجشعهم وأردف طارق : إلاّ أن أرضنا لهب وشوك، ولحمنا مر، وحقدنا أسـود. ولكن ما ذنبك أنت يا أسعد لتكون ضحية اللؤم والطمع والخيانة؟.. لقـد احتـرق جناحاك أيها الطائر الحر في لهب الجريمة المثلثة ولكن حياتك لم تذهب عبثا. إن تمردك يقض مضاجع الأعداء ويفقدهم الروية والصبر. إن الانتقام من فتى لم يبلغ سن الرشد لدليل على فقد أعصابهم. فليعلموا أن الإرهاب لا يرهبنا، بـل يزيـدنا إصرارا.. السيل يبدأ بقطرة تجتمع إلى أختها ليصبح هادرا، والثورة تبدأ بكفـاح لأفراد ثم تعم الجميع فإذا أشعل الفجرة نارا على أرضنا أطفأها الله!.

لن نبكيك يا أسعد، يا من كنت صغيرا في عمرك بيننا كبيرا في حملك الكبيـر، كبيرا في احتمالك قسوة السجانين، كبيرا في صمتك الذي أعجز فظاظتهم، كبيـرا في مواجهتك المصير.

المجد والخلود للثوار.. الله أكبر.. النصر للعرب والمسلمين.. الويل للظالمين..

وانتهز شيخ مجدور هذه الفرصة وقال بصوت عال معلنا سرا:

- كل هذا مكتوب بالجفر.. سيجتمع يهود العالم في فلـسطين والنـاس يتبعـون أعور الدجال "ويسود على الأرض الظلم والإرهاب حتى يثور غضب السماء. ثم يقوم المسيح عليه السلام فمن اتبعه نجا من الهلاك ومن اتبع الدجال ألقي بالنار.. ويومها سيفقد كل سلاح قوته ويحارب العرب اليهود بالسلاح الأبيض. ويغرز الله حراب أعدائه في نحورهم، وتكون فلسطين مقبرة يهود العالم.. وبعد هذا يقتـرب يوم القيامة حتى لا يكون بيننا وبينه إلا هذه..

ونتف شعرة من لحيته المشتهبة الكثّة، وعرضها على الجمهور، وقال الغيبيون: "صدق الشيخ، ليس بيننا وبين القيامة إلا قيد شعرة."

وتململ الشباب، وقال أحدهم: "يا شيخ هل أعطاك الله سره؟..ما هـذا إلا رجـم بالغيب والمنجمون كاذبون ولو صدقوا."

وغضب الشيخ وأسف لأنه يعرض علمه على جهلة مغرورين:

- ليس الجفر تنجيما يا مارق.. إنه كتاب مقدس من عهد علي كـرم الله وجهـه ويتناقله الأولياء جيلا بعد الآخر..

وحدث هرج ومرج، وقال أحد الرجال محاولا أن يعيد الهدوء:

- يجب أن نكون في الجامع قبل صلاة العصر.

وأطلق ثائر ثلاث عيارات نارية في الجو ثم ألقى كلمة باسم الثورة التي ينـوب عنها:

- لقد آمنت يا أسعد أن الله ينصر الأمة بكفاح أبنائها فما تقاعست ولا تهاونت، ولا انتظرت المعجزات، لأن يديك كانتا تفعلان المعجزة بنضالك وإخوانك، باستبسالكم وعزمكم على أن لا تلقوا السلاح إلا يوم النصر.

والتهبت الأكف بالتصفيق.. كان ماجد محتدم الوجه وقد عول على أمر فما كاد الثائر ينتهي من تأبينه حتى تقدم وعيناه مثبتتين على وجه صديق طفولته الشمعي وقال بصوت زاخر عميق:

- تحية لك يا أخي أسعد، إنني أعاهدك بشرفي أن أحمل سلاحك وأواصل نضالك في صفوف الثورة!..

تركت تلك الكلمات القليلة أثرا ملحوظا إذ ساد الصمت لحظة واستدارت نحـو ماجد الأنظار ثم ثار لجب بين القوم وهم في تساؤل واستفسار، وأطلق ماجد مـن مسدسه النار، وهو واقف في الباب كأنما يستشهد السماء على عزمه.. وعلا البشر الوجوه وسرت الهمسات حتى بلغت أذن أم ماجد فاضـطرب فؤادهـا وتلاحقـت أنفاسها وامتقع لونها.. كانت محط النظرات وأحست بذلك الضيق المذعور الـذي ينتاب الخجلى حين تسلّط عليها الأضواء.. لم تنبس بكلمة.. ماذا يعنـي هـذا؟.. يلتحق بالثوار أولئك الذين يضيق البيت بهم، أولئك الذين لا مستقبل لهـم، أولئـك

الذين تنجب أمهاتهم جيشا جرارا من الأبناء.. أما هي أم ماجد التي ليس لها في الدنيا إلا هذا الابن الوحيد كيف تلقي به إلى التهلكة؟.. حتى حين كانت تركيا تلملم الرجال من الطرقات لتدعم بهم جيشها كانت تترك وحيد الأم، والرجل المتزوج مقطوعة الأهل.. وخيل للنسوة أن وجه أم ماجد يتذوّق بألق غريب فمدحن شجاعتها كأنما يدفعنها لهذا الموقف.. وكانت أم ماجد تستطيع أن تحتفظ بهدوء أعصابها، فانفعالاتها غير لجوجة، ولقد تعلمت دوما أن تكبتها، ففي حزنها وخوفها وغيرتها يصيب أعصابها الخدر بدل التوتر العنيف. وتشعر بكآبة تكتم أنفاسها، وتشل وعيها، فإذا بحركتها قلقة وبعينيها رفيف قلق. وإذا بها تشعر بالعجز يصيب أضعف مكان في جسدها، فتغدو عرضة للأنزفة طريحة الفراش إلى حين.

كانت في تلك اللحظة والنسوة يتحدثن عن بطولة الآباء والأمهات اللواتي استشهد أبناؤهن ويضربن المثل بامرأة استشهد ابنها فقالت لماذا تنجب النساء الأبناء، أليس لمثل هذا اليوم؟.. إن في جسدها شيئا يفقد ترابطه، وابتسمت ابتسامة باهتة. أي شيء هي الشجاعة سوى الاستسلام المطلق لواقع لا مفر منه؟..

كان في ذهنها يدور السؤال: هل قصرت في حقّه أو قصر والده حتى يهجر البيت؟.. كان ماجد بالنسبة إليها ذاتا مغلقة بالرغم أنها أمه. نظرة إليه تملأ قلبها بكبرياء خفية لكأنما هو شيء مختلف من أبناء الأمهات. كل ما يفعله جميل، كل ما يفكر به جميل، كل ما يتصرف به جميل.. كانت تقدسه كما يقدس البدو القرآن

دون أن يطّلعوا على ما فيه.. ولم تخرج من فمها طوال حياتهـا كلمـة نابيـة أو غاضبة في تعنيفه أو لومه كما تفعل الأمهات ينفثن بها غيظهن دون أن يعنينها، أو كما كانت تفعل أم أسعد وهي تركض وراء إبنها في صحن الدار، وبيـدها خفهـا تدعو عليه غاضبة أن لا يذهب إلا شنقا. وهو يزلق منها ويحاورها حـول البئـر ويضحك.. كانت تخشى لو دعت عليه يوما أن تكون أبواب السماء مفتوحة فتلتقط رغبتها وتنفذها حاملة إياها محمل الجد فليس من المعقول أن تكون جميع الملائكة على علم بنواياها.. ولهذا حبست لسانها على أن يعتاد التهديد بالأدعية. وكان كل نهيها وسلطتها عليه أن تقول له حين تستاء من تصرفه: "برضاي عليك لا تفعـل كذا، الله يوفقك لا تفعل ذاك، ولا تعد لمثله." وكبر ماجد وكبرت مشاغله وبقيـت منها في الخارج، تتلمسها بالحدس دون أن تنفذ إليها، ودون أن تجرؤ على الولوج في أعماقه.

كان بالغ الصمت، بالغ الإحساس بذاته، وبالغ الاستقلال والعزلة النفسية..

لاحظت أم ماجد ميل ابنها إلى الوجوم في المدة الأخيرة فأسرعت للاعتقاد بـأن حنان هي السبب، هي التي تدفعه لليأس فكبر سخطها عليها وأحست بخيبـة أمـل كبيرة في الفتاة التي ظنّتها يوما أفضل من تكون عروسا لماجد.